أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه: دراسة تطبيقية في الحديث النبوي

د. ناصر راضي الزهري إبراهيم(*)

المقدمة:

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه ،وعظيم سلطانه ،عدد خلقه ، ورضا نفسه وزنة عرشه ،ومداد كلماته ، ونصلي ، ونسلم على نبينا محمد ، وآله، وصحبه ، ومن تبعهم إلى يوم الدين وبعد..

(فإن طبيعة الحياة في الجزيرة العربية طبيعة صعبة بسبب تضاريسها الجغرافية بين الصحاري ،والجبال، وقلة المياه ،وندرة المطر ، ولم تعرف الجزيرة العربية الزراعة إلا في مناطق محدودة في الجنوب ، والشرق . وواحات الحجاز مثل يثرب ،وخيبر ،وفي الطائف ،ووادي القرى، وعاش أهل مكة على التجارة ،وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا ، وجنوبا في طرق معروفة ،كما كانت تجوب شرقا في طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسي من شرق مكة ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خيبر، ثم يخترقون الصحراء في وادي الرُّمة ،ومنه يذهبون إلى الحيرة يصحبهم الأدلاء يحمونهم من الضلال في مجاهل الصحراء كما كان يصحبهم حرّاس يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية ،وقراصنتها الذين تعودوا النهب ،والسلب الذي كانوا يمارسونه أفرادا ،وقبائل)([1])

وبيئة كهذه تسم ساكنها بميسم الذكاء ،وقوة الحافظة ،وسرعة البديهة، والقدرة على التصرف لأنه أميٌّ يحتاج إلى تصوير معالمها التى يهتدي بها في عقله ، ويحتاج إلى معرفة القبائل المغيرة ،والأماكن الوعرة، والوحوش الضارية ،وحمى الملوك ،وأماكن الماء ،وكما صوَّر ذلك على الأرض صوَّره في صفحة السماء، فرسم خريطة اهتدى خلالها بنجومها، وكواكبها في سيره ليلا كما عرف سحبها ،وأنواءها ،وبرقها، ورعدها .

وبذلك صارت بيئة العربي محفورة في عقله نسيانها – بالنسبة له- ضلال مبين؛ ولذلك كان إذا أراد التعبير عمَّا في نفسه في سرعة ، ووجازة

(*) مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية في أسيوط.

[1] ينظر العصر الجاهلي / د: شوقي ضيف / جـ : ١ ص : ٧٦ / الطبعة الرابعة والعشرون- دار المعارف .

،ووضوح لجأ إلى تلك الصور ليكسو بها معانيه، فتخرج في أجمل هيئة وقد صوّرها في شعره ،قال ابن طباطبا العلوي :(أن العرب أودعت أشعارها من التشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها ،وأدركه عيانها ، ومرت به تجاربها وهم أهل وبر صحونهم البوادي وسقوفهم السماء فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها وفي كل واحدة منهما في فصول الزمان على اختلافها)([2]).

ولهذا كان المعنى المفهوم من التشبيه المنتزع من هذه البيئة أوضح المعاني ،وأرسخها في نفوسهم ، وأسرعها إلى أذهانهم ،ومن ثم خاطبهم القرآن الكريم بأساليبهم فكثر فيه ، وفي حديث الرسول ﷺ تقرير المعاني – خاصة الغيبية – عن طريقه .

التشبيه والتواصل .

التشبيه ،والتمثيل من أقوى الوسائل التي تحقق التواصل ،وتقرر المعنى(ومما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في فن البلاغة وأن تعقيب المعاني به لاسيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت أو ذما أو افتخارا أوغير ذلك)([3]).

وله فوائد متعددة (لأنك إذا أردت تشبيه الشيء بغيره فإنما تقصد به تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به ،أو بمعناه ،فيستفاد من ذلك المبالغة فيما قصد به من التشبيه على جميع وجوهه من مدح ،أو ذم ،أو ترغيب ،أو ترهيب ،أو كبير ،أو صغير ،أو غير ذلك من الوجوه التي يقصد بها التشبيه ، وترد للإيجاز أيضا ،أو للاختصار في اللفظ من تعديد الأوصاف الشبهية ،وترد للبيان، والإيضاح أيضا، فهذه مقاصد ثلاثة)([4]).

---

[2] عيار الشعر لابن طباطبا العلوي / ص : ١٠/ ت: طه الحاجري ومحمد زغلول/ طبعة المكتبة التجارية – القاهرة – ١٩٦٥م.

[3] الإيضاح للخطيب القزويني / جـ: ٤/ ص: ١٥/ ت:محمد عبد المنعم خفاجي/ الطبعة الثالثة / دار الجيل – بيروت.

[4] ينظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز / يحيي بن حمزة العلوي جـ ١ص: ٢٧٤/ دار الكتب العلمية– بيروت-١٤٠٢ هـ ١٩٨٣م. بتصرف.

(أمـــا التمثيل فإنه ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل،واستنزاله من مقـــام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجـــامح الأبـــي كـــيف لا ؟ وهو رفع للحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبـــراز لهـــا فـــي معـــرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف)([5])

وصـــدور التـــشبيه من واقع البيئة التي يحيي فيها المبدع يجعله أكثر إدراكـــا لمفـــردات هـــذه البيئة، فيختار الصورة التشبيهية التي تحكي هذه المفـــردات بحسب قدرته الإبداعية على الرصد ،والاستيعاب ،والتصوير كما أن المتلقي إذا ،وافقت الصورة التشبيهية معارفه الحياتية ،وبيئته الطبيعية استطاع خلال الصورة أن يفهم مفردات المعنى الذي يقصده المبدع بالإضافة إلـــى أنهـــا تعطـــي مدلـــول الصورة امتدادا عبر الزمان ،والمكان(وقد نبه البلاغيون إلى أن صور التشبيه حين يستمدها الشاعر من عناصر كونية ،أو نفـــسية عامـــة يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة المتذوقين كالتشبيه بالشمس ،والبدر ،والجبال ،والأنهار... ،وأحوال الخوف ،والأمن ،والغضب ، والرضـــا ،والقوة والضعف ،وما شابه ذلك مما هو شركة بين الناس ،والأمم يكون هذا الاستمداد من هذه العناصر أحفظ لبقائها ،وحيويتها ،وتأثيرها في أجيال الناس ، والأمم.

وهـــذا القدر من التشبيه هو الذي يربطنا بصور الشعراء الذين عاشوا فـــي زمان غير زماننا ،وبيئات غير بيئاتنا ،وليس اختلاف العصر ،والبيئة، والأطـــوار الحضارية بحائل بيننا ،وبين التذوق ،والاستمتاع بهذه الصور ؛ لأنهـــا كانـــت أخلـــد من الزمان، والمكان حين استمدها الأديب من العناصر الإنسانية ،أو الكونية العامة)([6]).

---

[5] ينظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم/ المؤلف : محمد بن محمد العمادي أبو السعود/ جـــ :١ ص : ٥٠ /الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت- بتصرف .

[6] التصوير البياني(دراسة تحليلية لمسائل البيان) د: محمد محمد أبو موسى/ص. ١٧٠/مكتبة وهبة /الطبعة الرابعة ١٤١٨ هـــ ١٩٩٧م.

وهذا يعني أن امتداد مدلول المعنى التشبيهي ،واستمراره يتصل اتصالا وثيقا بالبيئة خاصة في ظواهرها العامة التي يشترك فيها جميع الناس، كما أن المعنى يتسع بقدر اتساع قدرة المبدع على استيعاب مفردات هذه البيئة، وتوظيفها في النص للتعبير عن المعنى المراد في ،وجازة ،ووضوح ،وتلك ميزة من أهم ميزات المعنى في الصورة التشبيهية بالإضافة إلى طرافة التناول ،وثبات المعنى ،واستمراره لاتصاله بالصورة المحسوسة، فالتشبيه ينقل الصورة من مجرد الأخبار التي تحتمل الصدق والكذب إلى تخيل مشاهدة أحداثها ،ووقائعها ؛ كما قال الإمام عبد القاهر (إن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر كما أخبر الله تعالى عن إبراهيم ﴿ قال بلى ،ولكن ليطمئن قلبي ﴾[٧] والشواهد في ذلك كثيرة ، والأمر فيه ظاهر)[٨]

لذلك آثرت الدراسة البحث في أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه عن طريق رصد جزئيات البيئة في الصورة التشبيهية، ومدلولها على المشبه ، واتساع أبعاد وجه الشبه بتتبع الخيوط الدقيقة التي نسجت الصورة ،وكيف اتصلت، وأين تلاقت حتى اكتملت.

روافد التشبيه النبوي .

إذا تأملنا حياة الرسول ﷺ وما أحاط به من مولده إلى مبعثه ثم ،وفاته ندرك من أول وهلة أنها حياة ذات خصوصية تخللتها خوارق أكسبتها صبغة خاصة ،فالطفل اليتيم تأخذه الملائكة ،ثم تشق عن صدره ،وتطهر قلبه وتصقله، فيصير أقوى القلوب ،وأوعاها لكل ما يحيط به في الكون ،ثم تنقل بين حرفة الرعي ،والتجارة ،وجاب البلاد؛ فعرف خصائصها ،وعايش أجناسا مختلفة من الناس وعرف طباعهم ،ثم أتاه وحي السماء ،وهو الحدث الأعظم الذي أضاء الأرض ،وأنقذ البشرية .

---

(7) سورة البقرة الآية ٢٦٠

(8) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر صـ ١٢٦/ ت: محمود محمد شاكر/ الناشر:مطبعة المدني/ الطبعة الأولى /١٤١٢هـ ١٩٩١م .

ثم رأى الجنة بنعيمها ، ورأى النار بجحيمها ، ورأى ما رأى عند سدرة المنتهى ،وما كشف له من أهوال القبور، والحشر، والنشر([9])، وزوى الله له الأرض ؛ فرأى مشارقها ومغاربها([10]) (واختصه الله بمعارف بصرية ،وقلبية،وجمع له بين علم اليقين ،وعين اليقين مع الخشية القلبية ، واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره)([11]) .

ثم جمع له أسباب البيان ، وطلاقة اللسان، وقوة الجنان ثم أمر بتبليغ كل ذلك للناس جميعا على اختلاف أجناسهم ، ولغاتهم ،واختلافهم في درجات الفهم ،والاستيعاب ، مع علمه بأنه يخاطب في جيله كل أجيال الأمة، ومع إدراكه لتطور الزمان ، واختلاف المكان ؛ فتزاحمت المعاني في صدره، وجاءت أساليبه في قمة الوفاء بالمعنى ،وبلغت جميع الأفهام مع اتساع في الدلالة لم يتسن لغيره من البشر .

قال الخطابي : (اعلم أن اللهَ لما وضعَ رسوله موضع البلاغ من وَحْيه ونَصَبه منْصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربَها ، ومن الألسُن أفصحَها وأبينَها ،ثم أمدَّه بجوامع الكَلم)[12].

ولما كانت النصوص النبوية معناها من الله ،ولفظها من الرسول ﷺ ، وأكثرها معان غيبية لم يسبق لعقول المخاطبين إدراكها ؛ احتاجت في كثير من الأحيان إلى أسلوب ينتقل بعقولهم إلى مدى أوسع من مداها يكون له

---

[9] قال - صلى الله عليه وسلم -:(إنه عرض على كل شيء تولجونه) أي تدخلونه من جنة ونار وقبر وحشر قال القاضي عياض : قال العلماء : تحتمل أنه رآهما رؤية عين – كشف الله --تعالى --عنهما وأزال الحجب بينه وبينهما - ....،وتحتمل أن تكون رؤية علم وعرض وحي بإطلاعه وتعريفه من أمرهما ما لم يعرفه قبل ذلك ... والتأويل الأول أولى وأشبه بألفاظ الحديث) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ج ٦ ص ٢٠٧ . الطبعة الثانية ١٣٩٢ / دار إحياء التراث العربي . بيروت .

[10] قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ...) ينظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٣٣١٥ ت / محمد فؤاد عبد الباقي طبعة / دار إحياء التراث العربي . بيروت .

[11] - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج ١١ص ٥٢٧ / طبعة دار المعرفة – بيروت / سنة : ١٣٧٩.

[12] المزهر في علوم اللغة للسيوطي/ جـ: ١ / ص :١٦٥/ ت: فؤاد علي منصور/الطبعة الأولى ١٩٩٨ م / دار الكتب العلمية– بيروت.

فضل اتصال بمعارفهم السابقة، وبيئتهم المحيطة بهم ليتحقق التواصل، وتبلّغ الرسالة .

الصدق الشعوري،وجمال الصورة.

المتأمل للمعنى النبوي عموماً والمعنى المفهوم من الصورة التشبيهية المنتزعة من البيئة خصوصاً يجد أنه يتميز بالصدق الفني مع الصدق الواقعي في مستوياته الثلاثة ،وهي المبدع ،والمتلقي والبيئة ،أو العالم،أما المستوى الأول :فالصدق فيه داخلي يتصل بتوافق التجربة المعبر عنها مع ما في داخل المبدع ،أو إخلاصه ،ولا شك أن النبي ﷺ كان أكثر الناس توافقا في قوله مع شعوره مع إخلاص بلغ غاية ما يمكن أن يصل إليه بشر، أما المستوى الثاني للصدق فيتصل بتوافق التجربة الفردية للمبدع مع ما جاءت به تجارب البشر من قبله كأن يودعها حكمة تألفها النفوس، وترتاح لصدق القول فيها ،وما أتت به التجارب منها،أو يضمنها أشياء توحيها أحوال الزمان على اختلافه كما توجهها حوادثه على تصرفها ،وأقرب المعاني إلى فطرة الإنسان ما جاء به الرسول ﷺ لأنها من وحي الله الذي يعلم طبائع النفوس ،وما يصلحها وفيها ما يتوافق مع ما جبلت عليه .

أما المستوى الثالث:فيتصل بتوافق الصياغة مع الواقع الحقيقي،أو مع البعد التاريخي للوقائع فإذا اقتص خبراً دبّره تدبيراً يسلس له معه القول ، ويطرد فيه المعنى فلا تكون الألفاظ خارجة عن جنس ما يقتضيه الخبر بل تكون مؤيدة له، وزائدة في رونقه وحسنه، وهذه سمة في الحديث النبوي عامة فضلا عن التشبيه خاصة ، وهذه المستويات الثلاثة لا تحدد الصدق على أساس من محتواه الأخلاقي فحسب ،وإنما تحدده على أساس منطقي لا سبيل إلى تجاهله،لأن كلاهما يلتقي عند مستوى الصواب ، وهو متحقق في النص النبوي)([13])

[13] ينظر مفهوم الشعر (دراسة في التراث النقدي)د : جابر عصفور / ص : ٥٠ / طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب / ٢٠٠٥م.

أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه النبوي

الرسول ﷺ أقدر الناس على إدراك، وفهم أبعاد البيئة المحيطة به فقد عاش ﷺ من ميلاده إلى وفاته حياة خاصة تعهده الله فيها بالرعاية ،والحفظ تنقل في التربية من مكان إلى مكان فقد بدأ حياته راعيا للغنم ثم تاجرا يجوب الأرض ، فأكسبه ذلك الصبر، وطول التأمل لما حوله ،وحسن سياسة الأنفس ،ورعاية الضعيف بين الأقوياء ،والانشغال بأمر الجماعة ،ورعاية الأفراد ،ودفع الخطر، واختيار الأصلح،وقد جاءت تشبيهاته صدى لها تحكي إدراكه لخصائص سمائها،وأرضها ،ونباتها وحيوانها،وكل ما يتعلق بها.

التشبيه بالحيوانات

ضمت البيئة العربية كثيراً من الحيوانات الأليفة التي كانت تحيا مع العربي، وتقوم حياته عليها كالإبل، والخيل، والغنم، وغيرها كما ضمت الحيوانات البرية كالأسد،والذئاب ،والضباع وغيرها وقد عرفها الرسول- صلى الله عليه وسلم- وعرف كل طباعها، ووردت تشبيهاته تعكس هذا الفهم، وتبرز خفي المعاني حتى تقرِّب ما وراء الغيب.

وصف الحركة في التشبيه النبوي:

من الصور المركبة المنتزعة من البيئة شديدة التأثير في دلالة التشبيه لنقل مشهد غيبي من أهوال القياسة ما روى عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ(.... يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ)[14].

---

[14] صحيح مسلم /جـ : ٣ ص : ١١٩١ / كتاب (الزهد والرقائق) باب (٧) حديث (٣٠٩٤).

صورة الحمار الذي يدور بالرحى من الصور المعروفة في حياة العربي وتشبيه الرسول ﷺ لدوران الآمر بالمعروف،ولا يأتيه الناهي عن المنكر، وهو يأتيه بها حال كونه في النار يوحي بعدة دلالات :

١ - التعبير بالدوران يوحي بامتداد العذاب وعدم تناهيه ،لأنه دوران حول النفس والدائرة ليس لها طرف يمكن أن ينتهي عندها أو غاية يصل إليها بالإضافة إلى الفضيحة بين الناس ،لأن المتحرك يراه الكثير بعكس الثابت في مكانه .

٢ - إضافة الدوران للحمار يفيد اليأس من الخروج من هذه الحال لأن الحمار معروف بالغباء والبلادة ،ولن يستطيع الخروج إلا إن أخرجه صاحبه وهي في جانب المشبه تشير إلى أن هذا الشقي المعذب لا يستطيع أن يخرج نفسه مما هو فيه إلا إن عفا عنه ربه .

٣. تشبيه دوران هذا العالم غير العامل في النار بدوران الحمار خاصة فيه إشارة إلى قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[15]لأنهم لم يقدروا قيمة ما يحملون من العلم ،ولم يعملوا به؛فصاروا بذلك أسوء حالا من الحمار،لأن الحمار يدور في الأرض،وهم يدورون في النار.

٤ - تعلق الجار،والمجرور (برحاه)بالفعل (يدور) يزيد الموقف هولا ، والصورة بشاعة ،وهي في جانب المشبه تشير إلى شدة ألم هذا الشقي ؛لأنه كان في الدنيا يدور في الناس يأمرهم، وينهاهم، والناس ينظرون إليه نظرة، وقار، واحترام ، وقد خالف قوله عمله فكان قوله في اتجاه وفعله في اتجاه يأمر بالمعروف ،ولا يأتيه ،وينهى عن المنكر ،ويأتيه؛ فجاء جزاؤه من جنس عمله حيث تدلى جوفه الفارغ من دبره للخلف، وأسرعت خطاه الحمقاء إلى الأمام في صورة دائرية يوحي فيها بناء الفعل (يُجاء) والفعل

---

[15] سورة: الجمعة - الآية: ٥.

(يُلقي) للمجهول بالحمل على الفعل ،والإكراه عليه ،وكل كريه للنفس تساق إليه سوقاً

٥- أما بناء الفعلين (تندلق) و (يدور) للمعلوم فللإشارة إلى حصولهما منه، فاندلاق الأمعاء إثر انفجار الحاجز ، وهو أمر تحدثه القذفة ، والدوران بها إثر الصدمة ،وهو أمر تحدثه الفواجع ،ويحدث تلقائيا عند المباغتة ، أما أنها لم تقترن بالتسويف مع أنها أمور أخروية مستقبلة ؛ فذلك لاستحضارها في الحال كأنها تدرك، وتحس[16]

٦- إضافة الرحى للحمار في قوله (برحاه)يشير إلى اختصاصها به وفي جانب المشبه به تفيد الإضافة في قوله (أقتابه)([17]) استحالة الخلاص منها لأنها جزء منه.

والمتأمل لدلالة التشبيه يجد أنها اتسعت باتصالها بمدلولاتها في بيئة المخاطبين ،فالحمار في عرف العربي علم على البلادة ،والتشبيه به من قبيل الذم ، ودورانه دليل على التسخير ،والإهانة ،وتعلق الرحى به دليل عناء، وشقاء لما هو معلوم من ثقلها،وصعوبة استخدامها .

والتشبيه بجملته ترهيب، وتحذير بالصورة، والصوت،والحركة ينقل أدق خصوصيات الموقف الرهيب يقول الإمام عبد القاهر : (واعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحرا أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات)([18])

---

[16] انظر (الحديث النبوى من الوجهة البلاغية) د عز الدين على السيد صـ ١٦٣ . بتصرف بسيط

[17] القَتَبُ : إكافُ الجَمَل والتَّذكيرُ فيه أعمُّ من التأنيث ولذلك أنّثوا المصغر فقالوا :قُتَيْبة ...وأقْتَبْتُ البعيرَ : شَدَدْتُ عليه القَتَبَ والمَبْعُوجُ تُجَرُّ أقتابُه أي أمعاؤه الواحدُ قِتْبٌ (ينظر كتاب العين / جـ ٥ / ص : ١٣١ت : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي / لناشر : دار ومكتبة الهلال .

[18] أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني / ص :١٨٠.

تلك بلاغة الرسول في استحضار المغيبات ،وتجسيمها[19] بالصورة ، وبالحركة ، والحوار . حتى كأن المخاطبين يشاهدون بأعينهم ،ويسمعون بآذانهم صورة هذا العالم الشقي ،ويسمعون حواره مع أهل النار؛ لأنه من وادي معانيهم، وواقع بيئتهم ؛ فيبقى حديثه بين أعينهم ما بقيت أرواحهم فيهم يطارد في أنفسهم شبح الكسل عن العمل بعد العلم ،وشبح الرياء بعد العلم،والعمل حتى يكون العمل خالصا صوابا.

التشبيه بالفحل .

ورد التشبيه بالفحل بالنظر إلى أهم خصائصه في بيئته ،وهي القوة ،وفرض السيطرة فشبَّه نهش الثعبان بقضم الفحل في صورة امتزجت فيها عناصر الحركة، والصوت، واللون.

امتزاج الصورة بالحركة.

نقل الرسول ﷺ كثيراً من مشاهد الآخرة بغرض الترغيب أو الترهيب عن طريق الصورة التي ترصد أدق التفاصيل التي تدقق الغرض عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ ،وَلَا بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا إِلَّا أُقْعِدَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَطَؤُهُ ذَاتُ الظِّلْفِ بِظِلْفِهَا، وَتَنْطَحُهُ ذَاتُ الْقَرْنِ بِقَرْنِهَا لَيْسَ فِيهَا يَوْمَئِذٍ جَمَّاءُ وَلَا مَكْسُورَةُ الْقَرْنِ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا حَقُّهَا قَالَ إِطْرَاقُ فَحْلِهَا ،وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا ،وَمَنِيحَتُهَا ،وَحَلَبُهَا عَلَى الْمَاءِ، وَحَمْلٌ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،وَلَا مِنْ صَاحِبِ مَالٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَّا تَحَوَّلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ ،

[19] (التجسيم) : وهو ان يحيل المعنويات إلى محسوسات ، امعانا في ابراز التجربة إلى حيز الوجود ، وتأكيدا للعلاقات الجديدة بين الالفاظ ....ووراء هذا التجسيم دافع نفسي عميق (التجربة الابداعية في ضوء النقد الحديث – دراسات وقضايا) د – صابر عبد الدايم صـ١٢٠ الطبعة الاولى سنة ١٤٠٩ هـ ١٩٩٠م مكتبة الخانجي القاهرة.

وَيُقَالُ هَذَا مَالُكَ الَّذِي كُنْتَ تَبْخَلُ بِهِ فَإِذَا رَأَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي فِيهِ فَجَعَلَ يَقْضَمُهَا كَمَا يَقْضَمُ الْفَحْلُ)([20])

وتشبيه الرسول ﷺ نهش الشجاع الأقرع بقضم الفحل،يعطي المشهد أبعادا إيحائية تزيده هولا ،وتحدث رهبة في قلب المخاطب تجعله أحرص على اتقاء أسبابها ،والبعد عن كل ما يؤدي إليها، وبمراجعة المشبه به في البيئة يتضح لنا ما يلي :

١. تشبيه نهش الثعبان بالقضم يشير إلى السرعة في النهش مما يعني انعدام الأمل في تفادي القضمة .
٢. إضافة القضم للفحل تفيد التأكيد على قوة القضم لما هو معروف في البيئة من أن الفحل هو الذكر القوي في الحيوانات .
٣. الإشارة إلى شدة التأثير في جسم المعضوض لكبر فك الفحل مما يشير إلي سعة دائرة الإيلام .
٤. الإشارة إلى استمرار الألم ؛لأن الفحل حيوان ليس له عقل يفكر، أو قلب يرحم إلا بالغريزة الموجهة له، وهي حال القضم غريزة غضبية تزيد القضمة قوة .
٥. الإشارة إلى تتابع القضمات لما هو معروف أن الفحل لا يكتفي بالقضمة الواحدة كما يشير التعبير النبوي في قوله (فجعل)التي تفيد الانتقال المرحلي من الاتباع إلى القضم ، ثم صياغة الفعل في صورة المضارع (يقضمها)الذي يستحضر الحدث ويفيد التجدد،وكذلك الفعل(يتبع) وكل هذه المعاني تجتمع لكي تحقق في النهاية غرض الصورة التشبيهية بتقرير عذاب مانع الزكاة، والمبالغة في الترهيب من الفعل بما يدفع المخاطب إلى اتخاذ موقف إيجابي بالمسارعة بإخراج زكاة مال يراه خلال الصورة التشبيهية ثعبانا عظيما يوشك أن يدركه بقضمة فحل .

---

[20] صحيح مسلم /كتاب الزكاة / باب: اثم مانع الزكاة / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

التشبيه بالكبش

ومن التشبيهات المنتزعة من البيئة ما جاء عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ !هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ ! فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ!هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ،ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ،وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، ثُمَّ قَرَأَ(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلُ الدُّنْيَا(وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ([21])

هيئة الإتيان بالموت وذبحه أمر غريب ومعنى غير معهود لدى المخاطبين ،وهيئة الكبش الأملح هيئة معروفة لكل عربي ،وتشبيه الإتيان بالموت بها يقربها، ويؤكدها وبالعودة بالتشبيه إلى البيئة تتضح عدة دلالات :

١ - أن الصورة واضحه أتم الوضوح في البيئة،والمعنى المجسم من خلالها وهو موت الموت انتقل من الغرابة والاستبعاد إلى الأنس ، والقرب بمباشرتهم للذبح .

٢ - اختيار الكبش كذبيح إشارة إلى انقياده مع سهولة السيطرة عليه بالنسبة لهم ؛لأنه أيسر في الذبح ، وقيل : الحكمة في كونه على هيئة كبش لأنه جاء أن ملك الموت أتى آدم عليه الصلاة والسلام في صورة كبش أملح قد نشر من أجنحته أربعة آلاف جناح ([22]).

---

[21] صحيح البخاري / جـ : ٤ ص: ١٧٥٩/ كتاب تفسير القرآن / باب {وأنذرهم يوم الحسرة } حديث :٤٤٥٣.

[22] ينظر عمدة القاري /جـ ١٩/ ص: ٧٤

قـــال القرطبـــي: الحكمة في الإتيان بالموت هكذا الإشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء به كما فدى ولد إبراهيم بالكبش وفي الأملح إشارة إلى صفتي أهل الجنة والنار؛لأن الأملح ما فيه بياض وسواد.([23])

٣- وصـــف الكبش بالأملح ،وهو الذي فيه بياض ،وسواد، والحكمة فـــي كـــون الكـــبش أملـــح أن البـــياض من جهة الجنة والسواد من جهة النار،لأنه يخاطب بالمشهد الجانبين .

٤- قـــوله (فـــيذبح)تأكـــيد لمـــوت الموت لا يبلغه شك لحقيقة نهاية الموت،وتقرير عملي يُرى عيانا لهذه الحقيقة، وهو معنى تقرر في أذهانهم بالحاقه بصورة الذبح المعروفة لديهم.

٥- حقيقة ذبح الموت قال الإمام العيني : فإن قلت الموت عرض ينافي الحياة أو هو عدم الحياة فكيف يذبح قلت يجعله الله مجسما حيوانا مثل الكبش ،أو المقصود منه التمثيل وعن ابن عباس ومقاتل والكلبي أن الموت ،والحياة جسمان، فالموت في هيئة كبش لا يمر بشيء،ولا يجد ريحه شيء إلا مات،وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء،وهي التي كان جبريل،والأنبياء عليهم الصلاة ،والسلام يركبونها خطوها مد البصر فوق الحمار،ودون البغل لا يمر بشيء ،ولا يجدر ريحها إلا حيى، وهو الذي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل فإن قلت من الذابح للموت قلت يذبحه يحيى بن ذكريا ﷺ بين يدي النبي ،وقيل الذي يذبحه جبريل ﷺ([24]).

---

[23] تحفة الأحوذي / جـ : ٧ / ص : ٢٣٤.

[24] ينظر عمدة القاري /جـ ١٩/ ص: ٧٤

التشبيه بالفلو

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ،وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ،وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ،ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ)(٢٥).

وبالنظر في حال المشبه به في البيئة يتبين مدى عظمة صدقة المتصدق، وحفاوة الله بها يفهم ذلك من معاملة العربي لفلوه ،وهو من كرائم ماله، ووسيلة رفاهيته ،ودليل عزه، وحب الخيل في طبع البشر، وقصة سيدنا سليمان فيها دليل على ذلك قال تعالى :(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ۞ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)(٢٦) وتشبيه حفاوة الله بصدقة المتصدق بها يقرر هذا المعنى ،ويثمّن غاليا قيمة الصدقة ترغيبا فيها لما تحققه من التكافل والتحابب الذي يقرب بين طبقات المجتمع ،وأفراده .

تركيب التشبيه مع تجريد الحركة .

التشبيه بالصحراء

كما أكسبته ﷺ الصحراء الوضوح ،والنقاء والحرية المطلقة ،وكيف يقيدها للصالح كما خبر كل ما يتعلق بها من وحوش ،وسباع، وحيوانات أليفة ،وزواحف ،ونبات ،وشجر ومدر فطبع كل ذلك في عقله ،وانعكس على تشبيهه ،فمن إدراكه لاتساعها،وما يعتريها من رياح وعواصف جاء تصويره لحال القلب في سرعة تحوله وعدم استقراره (عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الرِّيشَةِ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ بِفَلَاةٍ)(٢٧).

وهذا التشبيه يصور حال القلب في تبدله من الخير إلى الشر،ومن الطاعة إلى المعصية بحال الريشة في مهب الريح تقلبها في كل اتجاه لا

---

[25] صحيح البخاري / جـ ٦ ص : ٦٩٩٣ كتاب الزكاة / باب قول الله تعالى: (تعرج الملائكة والروح إليه) / حديث ٢٧٠٢ .

[26] سورة ص الآية ٣١ :٣٢ .

[27] سنن ابن ماجة / لمحمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني / المقدمة /باب القدر/ حديث :٨٨ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر : دار الفكر – بيروت.

يمـــنعها شيء صورة مركبة تتعدد فيها الحركات في اتجاهات متضادة يقول الإمام عبد القاهر (وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون في الجسم فـــيقع فـــيها نوع من التركيب ، بأن يكون للجسم حركات في جهات مختلفة نحو أن بعضها يتحرك إلى اليمين ،والبعض إلى الشمال ،وبعض إلى فوق ، وبعـــض إلـــى قـــدَّام ونحو ذلك ،وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر)([28])

وبالرجوع بالتشبيه إلى البيئة نستخلص عدة معانٍ :

١. الإشارة إلى اتساع الدنيا ،وتشعبها مما يجعل التيه فيها أمرا ممكنا يفهـــم هذا المعنى من حال الفلاة ،واتساعها،وإمكان التيه فيها مما يعني الهلاك إلا على بصير بدروبها خبير بشعابها ،وهم قليل.

٢. الإشـــارة إلـــى تعدد أخطار الدنيا ،وتعرض الإنسان فيها لمختلف الأعراض من مرض ،أو فقر ، وهرم ،أو موت يفهم ذلك من كثرة أخطـــار الفـــلاة مـــن وحـــوش وســـباع ،وانقطـــاع للطعـــام ، والشراب،وغيرها قال عنترة :

تُقَلِّبُهُ وَحشُ الفلا وَتَنوشُهُ مِنَ الجَوِّ أسرابُ النُسور القَشاعِم ([29])

٣. الإشارة إلى سرعة تقلب القلب ،وعدم ثباته على طاعة ،أو معصية ممـــا يستلزم الاستعانة بالله تعالى لتثبيته، ولذلك (كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ يَا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ (قَال أنس) فَقُلْـــتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ نَعَمْ إنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أصْبُعَيْنِ مِنْ أصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)([30]).

---

[28] أسرار البلاغة / الإمام عبد القاهر ص : ١٨٢.

[29] ديوان عنترة بن شداد/ ص : ٢٧٣ / ت:بدر الدين حاضري،محمد حامي/دار الشرق العربي – بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٢هـ١٩٩٢م.

[30] سنن الترمذي / جـ ٤ - ص: ٤٤٨/ كتاب النذور والأيمان / باب : ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن/ حديث: ٢١٤٠ .

قال الشاعر:

ما سُمّيَ القلبُ إلّا مِن تقلّبِهِ وَالرّأيُ يُصرَفُ والأهواءُ أطوارُ[٣١]

ويفهم هذا المعنى في الصورة من خفة الريشة، وانعدام الوزن الذي يحقق لها الثبات بالإضافة إلى عدم اتصالها بشيء يجعل لها نوعا من الثبات باتصالها به ،وهي أخف شيء في الطائر.

٤. الإشارة إلى قوة الأخطار المحيطة بالإنسان ،والتي لا يمكن مواجهتها إلا بالاستعانة بالله ،وهو صلب المعنى الذي يلفت إليه الحديث ، يفهم ذلك من حال الريشة الخفيفة في مواجهة الرياح ، ومن المعلوم في البيئة أن أقل ريح يمكن أن تذهب بأكبر ريشة كل مذهب .

٥. يفهم من جمع الرياح، وإفراد الريشة كثرة الأخطار مع صعوبة الخلاص منها لوجودها في كل مكان، وصدورها من كل اتجاه مع، وحدة القلب،وقلة الناصر مما يعزز الشعور بالافتقار إلى الله .

التشبيه في الغرائز والطباع

التشبيه في الغرائز والطباع تصوير لأمور معنوية لأنه يرصد الانفعالات الغرزية والأخلاق الراسخة وما جرى عليه طبع أو سجية كالشجاعة ،أو الجبن ،والكرم ، أو البخل وغيرها وقد رأى الإمام عبد القاهر الجرجاني أن هذا النوع يختص بكونه تشبيها لا تمثيلا [٣٢].

التشبيه بمعادن الأرض

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ :أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ

---

[31] الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني/ جـ : ١٩ص : ٢٦٧./ دار الفكر – بيروت / الطبعة الثانية.

[32] ينظر أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني / ص : ٩١

تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا)([33]).

وبالنظر في بيئة التشبيه يتضح كثير من المعاني :

١ - اختلاف طباع الناس ،وصفاتهم الخُلقية، والنفسية يفهم هذا من تفاوت المعادن .

٢ - الإشارة إلى تفاوت الناس في تقبلهم للإصلاح، فمنهم السهل ،ومنهم من يحتاج إلى صبر، ومنهم من لا يقبل كما هو حال معادن الأرض (المشبه به) فمنها ما يسهل استخراجه ومنها ما يصعب استخراجه ،ومنها ما يسهل تشكيله، ومنها ما يصعب تشكيله.

٣ - الإشارة إلى تفاوت الناس في كرم الأصل ،وخسته يفهم ذلك من تفاوت المعادن في نفاستها فمنها الغالي كالذهب، والفضة، ومنها الرخيص كالحديد، والقصدير.

٤ - الإشارة إلى تفاوت الناس في قوة التحمل، والصبر على الأذى يفهم ذلك من تفاوت المعادن في صلابتها فالحديد يخالف النحاس كما يخالف الرصاص .

٥ - الإشارة إلى أن معرفة أصول الناس تحتاج إلى بحث في أحوالهم. وتدقيق في منابتهم حتى لا ينخدع الإنسان بالظاهر ويحكم خلاله على صفات الشخص ،لأن كريم الخلال قد يعتريه في الظاهر ما يخفي كرم أصله من فقر أو خمول ذكر في الناس أو غيره كما يمكن لخسيس الأصل أن يعتريه في الظاهر ما يوهم بكرم الأصل وهو على غير ذلك يفهم ذلك من حال المعادن في الأرض التي لا يعرف خصائصها إلا بعد استخراجها من باطنها والكشف عنها

قال ابن حجر : وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها بل من كان شريفا في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر

---

[33] صحيح البخاري / جزء ٣ - ص ١٢٨٨/ كتاب المناقب / باب : قوله تعالى : (...إن أكرمكم عند الله أتقاكم) حديث : ٣٣٠٤

شـــرفه وكـــان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية وأما قوله إذا فقهـــوا ففيه إشارة إلى أن الشرف الإسلامي لا يتم إلا بالتفقه في الدين)([34]) ومن تشبيه الغرائز والطباع بيان أنواع الناس في قبولهم للهداية ،أو عدمه كما سيأتي.

التشبيه المتعدد .

التشبيه بأنواع الأرض مع الغيث .

ورد التـــشبيه بالأرض في صورة عكست إحاطة الرسول ﷺ وعلمه بأنواعها وخصائص كل نوع ،وقد استخدمها لتقرير المعنى ،وتوضيحه عَنْ أبـــي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَـــيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُـــوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَـــأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)([35]).

المـــتأمل للصورة النبوية في هذا التشبيه التمثيلي يجد أنها من صميم البيئة التي يلابس المخاطب كل دقائقها ،وبالتالي تنعكس على فهمه للمعنى، وثـــرائه مما يسهم في اتساع دلالة التشبيه،قال النووي:(معنى هذا التمثيل أن الأرض ثلاثـــة أنـــواع فكـــذلك الـــناس ؛ فالنوع الأول... المنتفع النافع والثانـــي: الـــنافع غير المنتفع ،والثالث :غير النافع ،وغير المنتفع، فالأول إشـــارة إلـــى العلمـــاء ،والثاني إلى النقلة، والثالث إلى من لا علم له ،ولا عقل)([36]).

وبتحليل النص النبوي نستطيع أن نقف على كثير من خصوصيات

---

[34] فتح الباري - ابن حجر جـــ ٦ - ص: ٥٢٩ / الناشر : دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩.

[35] صحيح البخاري / جـــ : ١ / ص : ٤٢ / كتاب العلم / باب فضل من علم وعلم / حديث ٧٩

[36] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج / للنووي /جـــ ١٥ ص : ٤٦ / دار إحياء التراث العربي – بيروت /الطبعة الطبعة الثانية ، ١٣٩٢

البيئة التي أثرت المعنى،وألقت بظلالها على مدلول النص .

١- من عادة العربي أن يسمي المطر في الخير بالغيث وفي غيره بالمطر فالغيث يستعمل في الخير، وفيه إشارة إلى أن كل ما جاء به الرسول ﷺ خير ،وذكر الإمام العيني وجهاً آخر قال : (فإن قلت لم اختير الغيث من بين سائر أسماء المطر قلت ليؤذن باضطرار الخلق إليه حينئذ قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)[37] وقد كان الناس قبل المبعث قد امتحنوا بموت القلوب ، ونضوب العلم حتى أصابهم الله برحمة من عنده ، وفي الحديث تشبيه ما جاء به النبي ﷺ من الدين بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه وتشبيه السامعين له بالأرض المختلفة فالأول تشبيه المعقول بالمحسوس ،والثاني تشبيه المحسوس بالمحسوس ،وعلى قول من يقول بتثليث القسمة يكون ثلاث تشبيهات على ما لا يخفى، ويحتمل أن يكون تشبيها واحدا من باب التمثيل أي تشبيه صفة العلم الواصل إلى أنواع الناس من جهة اعتبار النفع،وعدمه بصفة المطر المصيب إلى أنواع الأرض من تلك الجهة قوله فذلك مثل من فقه تشبيه آخر ذكر كالنتيجة للأول،ولبيان المقصود منه...وأما وجه الشبه فهو الجهة الجامعة بين العلم والغيث فإن الغيث يحيي البلد الميت،والعلم يحيي القلب الميت)[38].

٢- في التشبيه بالغيث إشارة إلى عموم الرسالة،لأن المعهود عن الغيث في البيئة أنه يسقي الجميع ولا يسقي شخصا ويترك شخصا بل يعم.

٣- وصف الغيث بالكثير فيه إشارة إلى امتداد العطاء عبر الأجيال لما هو معلوم من أن الماء الكثير يبقى أكثر لاسيما إذا وجدت الأرض التي تحفظه كما تشير بقية الحديث .

٤- تعبير الرسول ﷺ بقوله (أصاب) إشارة إلى تحقق التبليغ ،لأن الإصابة ضد الخطاء

---

[37] سورة: الشورى - الأية: ٢٨ .

[38] ينظر عمدة القاري / جـ : ٢ ص : ١١٩.

يقال أصاب فلانٌ في قوله وفِعْلِه وأصابَ السهمُ القِرْطاسَ إذا لـم يُخْطِئْ ([39]) مما يعني تحقق الوصول بالرسالة للمرسل إليهم .

٥- تقسيم الرسول ﷺ لأنواع الأرض في استقبالها للغيث يستوعبها في البيئة إذ أن الأرض إما أن تكون صلبة تمسك الماء ،وإما أن تكون خصبة تنبت، وإما أن تكون قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلاء وهو من حسن التقسيم كما أنه يشير إلى الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي (عَنْ أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)([40]) .

٦- شخَّص الرسول ﷺ من خلال البيئة الطبيعية أصناف الناس في استقبالهم لما جاء به من الوحي بأصناف الأرض الثلاثة وقابلها بنوعين من الناس نوع علم وتعلم ونوع أبَىَ وتكبَّر وسكت عن النوع الناقل وإذا نظرنا إلى مقابله في البيئة من أنواع الأرض نجد أنها لا تذكر لأنها تكون مغطاة بالمياه ونفعها قاصر على إمساك الماء.

قال العيني :(ذكر في تقسيم الأرض ثلاثة أقسام وفي تقسيم الناس باعتبار قبول العلم قسمين أحدهما من فقه ونفع الغير والثاني من لم يرفع به رأسا وإنما ذكره كذلك لأن القسم الأول والثاني من أقسام الأرض كقسم واحد من حيث إنه ينتفع به والثاني هو ما لا ينتفع به وكذلك الناس قسمان من يقبل ومن لا يقبل وهذا يوجب جعل الناس في الحديث على قسمين من ينتفع به ومن لا ينتفع وأما في الحقيقة فالناس على ثلاثة أقسام فمنهم من يقبل من العلم بقدر ما يعمل به ،ولم يبلغ درجة الإفادة ومنهم من يقبل

---

[39] لسان العرب / المؤلف محمد بن مكرم بن منظور الأنصاريالمصري / جـ : ١ / ص: ٢٠٤/ دار صادر – بيروت –الطبعة الأولى .

[40] سنن الترمذي / جـ ٥ - ص : ٢٠٤ / كتاب تفسير القرآن/ باب ٣ ومن سورة البقرة / حديث :٢٩٥٥ .

ويبلغ ،ومنهم من لا يقبل...)[41]

التشبيه بالحصى

تصوير البعد الزماني بالبعد المكاني في التشبيه.

عن ابْنُ بُرَيْدة عَنْ أبيهِ قالَ قالَ النَّبيُّ ﷺ هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذِهِ وَمَا هَذِهِ وَرَمَى بِحَصَاتَيْنِ قالوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ قالَ هَذَاكَ الْأَمَلُ وَهَذَاكَ الْأَجَلُ)([42])

أراد الرسول ﷺ أن يقرر بصورة جلية المفارقة بين قرب أجل الإنسان وبعد أمله حتى لا يشغله طول الأمل عن دنو الأجل؛ فيخسر آخرته فاستخدم لذلك حصاتين ألقاهما بطريقة معينة تركت مسافة من المكان صوّر خلالها مساحة الزمان بين أجل الإنسان، وأمله عن طريق التشبيه ،فخرج بالمعنى من حيز المعاني المجردة المتخيلة إلى حيز المحسوس المدرك بالبصر،مما ساعد في تقرير المعنى،وتوضيحه لإدراكه بحاسة البصر بعد أن لفت أسماعهم إليه ،ولا شك أن ما تقرر بحاستين أوكد مما تقرر بحاسة واحدة مع تحقيق الثبات للمعنى في أذهان المخاطبين لارتباطه بأشياء مقارنة له في أذهانهم تجعله أثبت مع الزمن .

أولاً : التشبيه بالنبات .

عرف الرسول ﷺ في بيئته النباتات ،والأشجار التي تنمو في الجزيرة العربية كالنخلة، والسدر والأرز ،والحنظل ،والأراك ،والسعدان، وغيرها كما عرف خصائصها، ووردت في تشبيهاته في دقة متناهية أبرزت المعني المراد، وبلغت جميع الأفهام حتى عجب القوم، ودهشوا من دقته، وطرافته عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ تَخْرُجُ ضِبَارَةٌ([43]) مِنَ النَّارِ قَدْ كَانُوا فَحْمًا قَالَ فَيُقَالُ بُثُّوهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَرُشُّوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَاءِ قَالَ فَيَنْبُتُونَ

---

41 عمدة الذري / جزء ٢ - صفحة ٧٩

42 سنن الترمذي / جـ : ٥ / ص ١٥٢/ كتاب الأمثال /باب ما جاء في مثل ابن آدم وأجله وأمله /٢٨٧٠

43 الضِبارة هي الجماعات المتفرقة ينظر (النهاية في غريب الحديث والأثر) أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري/ جـ: ٣/ ص: ١٥٣/ تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي/ الناشر : المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

كَمَـا تَنْـبُتُ الْحِـبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَأَنَّكَ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ)([44])

قـال العلامة المناوي :(والمراد التشبيه في سرعة النبات، وطراوته، وحسن لونه وضعف النبات، فهو كناية عن سرعة نباتهم، وحسن ألوانهم، وضعف حالهم، ثم يشتد قواهم بعد، ويصيرون إلى منازلهم شبه سرعة عود إنباتهم بسرعة نباتها)([45]) ومن ذلك :

- التشبيه بالنخلة .

صورة النخلة في تراث العربي

للـنخلة فـي حياة العربي وضع خاص ؛لأن عليها قوام حياته وحيثما وجدت وجد وارتبطت بخياله وشعره ورأي فيها كرم الأصل ،والشموخ ، كما كنى بها عن المرأة لمكانتها عندهم

قال الشاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق ... عليك ورحمة الله السلام

سألت الناس عنك فخبروني ... هناة ذاك تكرهه الكرام

وليس بما أحل الله بأس ... إذا هو لم يخالطه الحرام

فإن هذا الشاعر كنى بالنخلة عن المرأة وبالهناة عن الرفث فإن العرب كانـت تكنـي بهـا عن مثل ذلك وأما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن ألطف الكنايات ([46])

كمـا رأوا فـيها تـشابه الفـرع مع الأصل في حسن السجايا ،وكريم الصفات

قال زهير بن أبي سلمى :

فما يَكُ مِن خَيرٍ أتَوهُ فَإنَّما ... تُوارَثُهُ آباءُ آبائِهِم قَبلُ

---

[44] مسند أحمد / جـ : ٣ / ص : ٩٠ / باقي مسند المكثرين /حديث(١١٨٧٥) .

[45] فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوي / جـ: ٢/ ١٦٩.

[46] خزانة الأدب وغاية الأرب/ لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي/ جـ :٢ص ٢٦٤/ت:عـصام شـعيتو/الناشر:دار ومكتبة الهلال – بيروت / الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م.

وَهَل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلّا وَشيجُهُ وَتُغرَسُ إلّا في مَنابِتِها النَخلُ([47])

كما رأوا فيها هوى نفوسهم، وملامح من محبيهم تشعل وجدهم ، وتحرك شوقهم

قال أمرؤ القيس:

وَفَرعٍ يَزينُ المَتنَ أسوَدَ فاحِمٍ أثيثٍ كَقِنوِ النَخلَةِ المُتَعَثكِلِ ([48])

عمق المعنى في التشبيه النبوي

وقد ورد التشبيه بالنخلة في حديث الرسول ﷺ مستخدما لخصائص هذه الشجرة في بيان صفات المؤمن مع التشويق للمعنى ،وإثارة انتباه المخاطبين عن طريق التشبيه عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ حَدِّثُونِي مَا هِيَ قَالَ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ ثُمَّ قَالُوا حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ (هِيَ النَّخْلَةُ) ([49]).

والرسول ﷺ إذا يجعل النخلة مشبهاً في حديثه إنما يجري في ذلك على سنن القوم ،أما عن أثر البيئة في اتساع مدلول التشبيه في هذا الحديث فإنه يبدو خلال المقارنة بين المشبه به، والمشبه ، وهما المؤمن ،والنخلة ،ومن أوجه التشابه بينهما:

١- النفع الدائم وعلى كل حال ؛لأن المشبه(النخلة) في بيئتها كلها منافع لا يسقط منها شيء بغير فائدة فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع مالا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل وخوصها يتخذ منه المكاتل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس ([50]).

---

[47] ديوان زهير بن أبي سلمى / ص: ٦٣ / طبعة دار صادر- بيروت .

[48] الأغاني / جـ : ١١ / ص : ١٤.

[49] صحيح البخاري جـ: ١ - ص: ٣٤ / كتاب : فضل العلم / باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا وأنبانا / حديث :٦٠.

[50] شرح النووي على صحيح مسلم جـ :١٧ ص: ١٥٤.

٢- يفهم من حال النخلة في البيئة من طيب ثمرتها، وحلاوتها ،وعموم المنفعة بها طيب كلام المؤمن ،وعمله، ورفقه بإخوانه ،ونفعهم متى وجد إلى ذلك سبيلاً .

٣- من المعلوم في الواقع، ومن نص الحديث عدم سقوط ورق النخلة مما يعني دوام لباسها، وزينتها فلا يسقط عنها صيفا ،ولا شتاء كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى ،وزينتها ،و لا تسقط له دعوة عن عبد الله بن عمر ﷺ قال كنا عند رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : إن مثل المؤمن كمثل شجرة لا يسقط لها أنملة أتدرون ما هي؟ قالوا لا قال هي النخلة لا تسقط لها أنملة، ولا يسقط لمؤمن دعوة)([51]) .

٤- النخلة ثمرها سهل التناول أما قصيرها ،فلا يحوج المتناول أن يرقاها، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال، وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي، والدرج إلى أعلاها ،وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر، ولا باللئيم .

(قال العلماء شبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة ،ومن خشبها ،وورقها ،وأغصانها، فيستعمل جذوعا ،وحطبا وعصيا ،ومخاصر ،وحصرا ،وحبالا ،وأواني ،وغير ذلك ،ثم آخر شيء منها نواها ،وينتفع به علفا للإبل ،ثم جمال نباتها ،وحسن هيئة ثمرها ،فهي منافع كلها وخير ،وجمال كما أن المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ،ومكارم أخلاقه)([52]).

٥- في تشبيه النخلة بالمسلم إشارة إلى الشموخ، والرفعة مع كرم الأصل يفهم ذلك من حال النخلة في امتداد فرعها في السماء ،وثبات أصلها

---

[51] بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث/ المؤلف : الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي / جـ ٢ / ص: ٩٦٥ / ت : د. حسين أحمد صالح الباكري/ الناشر : مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة /الطبعة الأولى ، ١٤١٣ – ١٩٩٢.

[52] شرح النووي على صحيح مسلم جـ :١٧ ص: ١٥٤.

فـــي الأرض روى عـــن أبي إياس معاوية بن قرة قال سمعت أنس بن مالـــك سئل عن هذه الآية ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة قال هي النخلة...)[53]

٦- يفهم من هذا التشبيه أيضا رد السيئة بالحسنة، وهو من خلق المؤمن لقوله تعالى:(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)[54] و قـــوله تعالى: (وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)[55] ويفهم هذا المعنى من حال النخلة في بيئتها حيث ترمى بالحجر ، فتقذف الثمر .

٧- يفهـــم مـــن التشبيه ضمناً الاستقامة على الفطرة ؛لأن حال النخلة في بيئـــتها ارتفاع ساقها إلى أعلى في استقامة، وسمو، وحال المؤمن في اســـتقامته علـــى فطرة الله وعبادته باتباع ما أمر، واجتناب ما نهى ، ولقائل أن يقول أن في بعض النخل في واقع البيئة اعوجاجا ، وميلاً ، أقـــول ،وفـــي هذا أيضاً تشبه المؤمن ،لأن في بعض المؤمنين نقصاً ، ولكـــن هـــذا النقص لا يخرج به عن أصل الإيمان، كالبخل والجبن في بعض المؤمنين مصداق ذلك ما ورد عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ لِرَسُـــولِ اللَّـــهِ ﷺ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ فَقَالَ: نَعَمْ ! فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ نَعَمْ ! فَقِيلَ لَهُ :أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ:لَا)[56].

٨- في التشبيه إشارة إلى قوة التحمل لظروف الحياة المختلفة فالمعروف في البيئة أن النخلة تتحمل العطش كما أنها تتحمل زيادة الماء فتعيش علـــى ضـــفاف الأنهار وكذلك المؤمن يتحمل شظف العيش صابرا ، أو يعيش في نعمة الله غنيا شاكرا .

---

[53] مسند ابن الجعد/ المؤلف : علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري البغدادي / جـــ: ١ - ص: ١٧٠ تحقيق : عامر أحمد حيدر/ الناشر : مؤسسة نادر – بيروت/ الطبعة الأولى ، ١٤١٠ – ١٩٩٠.

[54] سورة: المؤمنون - الأية: ٩٦]

[55] [سورة: فصلت - الأية: ٣٤]

[56] موطأ الإمام مالك / جـــ : ٢ / ص : ٩٩٠ / كتاب الكلام / باب ما جاء في الصدق والكذب / حديث : ١٥٧١ / ت : محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي – مصر .

كمـــا أن النخلة تتحمل الرياح ،والعواصف ، فتميل، ولا تنكسر في حـــين أن بعـــض الـــشجر ينكـــسر، ولا يميل كشجر الأرز الذي شبَّه به الرســـولُ ﷺ الكافر فيما رواه أبو هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَـــثَلُ المُـــؤْمِنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأتْهَا فَإذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأ بِالبَلاَءِ وَالفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إذَا شَـــاءَ)([57]).كـــذلك المـــؤمن الذي يتقلب راضياً في قدر الله بين العسر واليسر في البلاء والعافية .

٩- للـــنخلة فـــي البيئة من الشوك ما يحمي ثمارها التى فيها مادة حياتها من كل دابة يدفعها فراغ رأسها من العقل إلى القضاء عليها قبل تمامها ،كـــذلك المؤمن يجب أن يكون له من القوة والبأس ما يحمي به نفسه مـــن عـــدوه قـــال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَـــيْلِ تُـــرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّـــهُ يَعْلَمُهُـــمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)([58]).

وروى أبو هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْـــتَعِنْ بِاللَّـــهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَـــذَا وَكَذَا ،وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهِ،وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ([59]) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :(مثل المؤمن القوي كمثل الـــنخلة ومثل المؤمن الضعيف كمثل الخامة([60]).وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن المؤمن : حر مجرد دائر مع الأمر حيث دار يدين بدين الآمر

---

[57] صحيح البخاري / جـــ : ٥ ص : ٢١٣٨/ كتاب المرضى /باب ما جاء في كفارة المرضى / حديث : ٥٢١٢.

[58] سورة: الأنفال - الأية: ٦٠

[59] صحيح مسلم / جـــ : ٤ / ص :٢٠٥٢ / كتاب القدر / باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله / حديث : ٢٦٦٤.

[60] مسند الشهاب / المؤلف : محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي / جـــ ٢ / ص ٢٧٩/ ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي
الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت / الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ – ١٩٨٦.

أني توجهت ركائبه ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق ويستوحش منه كل مبطل كالغيث حيث وقع نفع وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله والغضب إذا انتهكت محارم الله فهو لله وبالله ومع الله قد صحب الله بلا خلق وصحب الناس بلا نفس...)[61].

١٠- النخلة كلما طال عمرها ازدادت شموخا وعلوا يزيدها منعة ويكثر ثمرها ويزيده طيبا وهذا في جانب المشبه به (المؤمن) كلما ازداد عمره إزداد خيره وكثرت طاعاته وازداد قربا من الله وبعدا عن المعاصي وتغلبا على شيطانه ونفسه الأمارة بالسوء.

١١- إذا نظرنا إلى النخل في بيئة العربي نجد أنه يجعل منه سورا يحمي بستانه من كل عادٍ عليه بزراعته حوله قال تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)[62] وكذلك المؤمن مصدر أمن وحصن لإخوانه في وقت الشدة والخوف بقدر قوة إيمانه ؛ ولذلك كان الصحابة إذا حمي الوطيس تحصنوا برسول الله ﷺ روى الحاكم في المستدرك عن علي ﷺ عنه قال : كنا إذا حمي البأس و لقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فلا يكون أحد منا أدنى إلى القوم منه)[63]. وعندما دارت الدائرة على المسلمين في غزوة أحد صمد قلة من الصحابة مع الرسول ﷺ في وجه المشركين حتى عاد بقية الصحابة خلفهم إلى القتال .

١٢- قلب النخلة (الجمّار) من أطيب القلوب وأحلاها وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب .

١٣- أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبدا(بل إن تعطلت منها منفعه ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للنسا في سعفها وخوصها

---

61 مدارج السالكين لابن القيم /جـ : ١ /ص : ٩٠/ ت : محمد حامد الفقي / دار الكتاب العربي – بيروت /الطبعة الثانية/١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

62 سورة الكهف / الآية (٣٢).

63 المستدرك على الصحيحين /المؤلف : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري / جـ ٢ ص : ١٥٥/ ت : مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية – بيروت/الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠.

وليفها وكربها منافع وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قـط إن أجـدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمـولا وشره مأمونا روى أبو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى أُنَـاسٍ جُلُوسٍ فَقَالَ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ قَالَ فَسَكَتُوا فَقَالَ ذَلِكَ ثَلَـاثَ مَرَّاتٍ فَقَالَ رَجُلٌ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا بِخَيْرِنَا مِنْ شَرِّنَا قَالَ خَيْـرُكُمْ مَـنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ قَالَ)([64])([65])

هكذا تجد التشبيه النبوي مع وجازته يقرر كثيرا من المعاني التي تصل إلـيها بطـول الـتأمل لكلامه ﷺ (فكلامه- ﷺ - كلما زدته فكرا زادك معنى ،وتفـسيره قريب قريب كالروح في جسمها البشري، ولكنه بعيد كالروح في سـرها الإلهي فهو معك على قدر ما أنت معه إن وقفت على حد وقف، وما أديت به تأدي ([66]).

التشبيه بالغصن

ورد التـشبيه بالغصن بخصوصية فيه إذا يبس وهي سقوط ورقه بأقل حـركة، فألحق به صورة تنقية الوضوء ،والصلاة لخطايا المصلي عَنْ أَبِي عُـثْمَانَ قَـالَ كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَـزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا عُثْمَانَ أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا قُلْتُ وَلِمَ تَفْعَلُـهُ فَقَالَ هَكَذَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ فَقَالَ يَا سَلْمَانُ أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا فَقُلْتُ وَلِمَ تَفْعَلُـهُ قَالَ إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ

---

[64] سنن الترمذي /جـ ٤ ص : ٤٥٩ / كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ/ باب :٧٦/ حديث : ٢٢٦٣/ ت : أحمد محمد شاكر وآخرون/ طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت .

[65] ينظر مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم / جـ : ١/ ص : ٢٣٠ / الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

[66] وحي القلم / مصطفى صادق الرافعي / ج٣ ص : ٧ / ت : درويش الجويدي / المكتبة العصرية / ٢٠٠٢ م .

تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ وَقَالَ (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) (67)

أراد الرسول ﷺ أن يقرر معنى تنقية الوضوء والصلاة لخطايا العبد فلم يلجأ إلى المعنى الذهني المجرد وإنما استعان بمعطيات البيئة لتصوير المعنى المراد فأخذ غصنا يابسا وهزه حتى تحات ورقه فقال يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟...) والملاحظ على النص عدة أمور :

١ - أنه اختار عنصراً من البيئة المدركة بأكثر من حاسة لتقرير المعنى

٢ - أنه اختار غصنا يابسا ؛لأنه المناسب لأداء المعنى المراد الذي يهيىء له لأن الورق اليابس يسهل سقوطه،وهو أشبه ما يكون بخطايا العبد المصلي التى انطفأت نار شهوتها في قلبه ببرد الإيمان الذي حل بقلبه بذكر ربه في صلاته واقفاً راكعاً ساجداً بين يدي الله يحاسب نفسه فيندم ويتوب

٣ - في التشبيه بالغصن الذي يبس ورقه إشارة إلى طبيعة تعلق المؤمن بالمعصية ،وأنها ليست أصيلة في نفسه ،ولا طبيعة فيه بل هي أمر عارض في لحظة ضعف لا يلبث أن يتعافى ،ويفارقها يفهم هذا من حال الغصن الذي لا يتصل اتصالا وثيقا إلا بما فيه نفع من خضر الأوراق أما ما يبس بسبب الآفة أو العطش ، فلا يبقى متصلا به ،وإنما يستبدله بغيره بعد قوته ما دام الأصل سليما.

٤. أنه هز الغصن حتى تساقط ورقه ،لأن هذا التجريد للغصن هو الموازي للمعنى الذي يرصد له وهو تجرد العبد الذي أسبغ الوضوء ثم أدى الصلوات الخمس وهذه الهزة التي تساقطت على إثرها أوراق الغصن تشبه انتفاضة الخشوع حين يقف العبد طاهراً بين يدي الله يراجع نفسه فيما قدمت غير أن هناك في جانب المشبه به (الغصن)هزة أخرى تفهم ضمناً من السياق من قول الراوي(وأنا معه تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابسا)لأن الغصن اليابس يتأثر بأقل حركة وفصله عن الشجرة يؤدي إلى تساقط بعض ورقه في أثنائه ،ولا يبقى إلا ما له فضل تمكن بالغصن

---

67) مسند أحمد / جـ : ٥ / ص: ٤٣٦/ كتاب باقي مسند الأنصار / باب : حديث رفاعة بن شداد عن عمرو بن الحمق ﷺ / حديث ٢٢٥٩٤.

ويقابلهـا في جانب المشبه حال العبد عند انفصاله عن المعصية ليعود إلى الطاعة عندما يتذكر ربه قال تعالى:(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...)([68]) قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)([69]) فالمؤمن إذا استفاق من نشوة المعصية ،وتذكر ربه أخذته هزة،وعلته خشية تمهد نفسه لتوبة توشك أن تطهره من خطيئته وفي مثل تلك الهزة قال الشاعر:

وإني لتَعْروني لذكراكِ هِزّةٌ ... كما انتفض العصفور بلّلَ القطر([70])

وقول الآخر:

وإنّي لتَغشاني لذِكراكِ هِزّةٌ ... لها بينَ جلدِي والعِظامِ دَبيبُ ([71])

والوضوء يمثل عمليا هذه اللحظة يؤيد هذا ما روى عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ أَنَّهُ دَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ وَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا وَذِرَاعَيْهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ وَظَهْرِ قَدَمَيْهِ ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ أَلَا تَسْأَلُونِي عَمَّا أَضْحَكَنِي فَقَالُوا مِمَّ ضَحِكْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا بِمَاءٍ قَرِيبًا مِنْ هَذِهِ الْبُقْعَةِ فَتَوَضَّأَ كَمَا تَوَضَّأْتُ ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَ أَلَا تَسْأَلُونِي مَا أَضْحَكَنِي فَقَالُوا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَا بِوَضُوءٍ فَغَسَلَ وَجْهَهُ حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ خَطِيئَةٍ أَصَابَهَا بِوَجْهِهِ فَإِذَا غَسَلَ ذِرَاعَيْهِ كَانَ كَذَلِكَ وَإِنْ مَسَحَ بِرَأْسِهِ كَانَ كَذَلِكَ وَإِذَا طَهَّرَ قَدَمَيْهِ كَانَ كَذَلِكَ)([72]). والتشبيه الكريم يفيض بهذه الإشعاعات ،وأكثر.

وبعد أن أنهى الرسول ﷺ التحضير للمعنى توجه بالنداء إلى المخاطب (يا سلمان !) وصدوره بعد أن أخذ الغصن وجرّده من ورقه - تشويق لما بعده وربط له بما قبله حتى يستصحب المشهد معه مع ما فيه من استنفار

---

[68] سورة : الحج الآية : ٣٥.

[69]) سورة: آل عمران - الأية: ١٣٥.

[70])الأغاني / جـ : ٥ / ص ٢٠٠ .

[71] الأغاني جـ : ٢٤ - ص ١٢٩.

[72] مسند أحمد / كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة / باب مسند عثمان بن عفان – رضي الله عنه - / حديث : ٤١٥ .

لحواسه للتوجه بكليتها إليه مع ما في ندائه باسمه من هدهدة لخاطره وتلطف في استجماع مشاعره .

٥- ثم التحضيض بالاستفهام تصعيداً للتشويق بالنداء، وتصويباً لعقل المخاطب نحو الوسائل المقررة للمعنى (ألا تسألني لم أفعل هذا ؟)

التشبيه بالشوك

ولأنه ﷺ كان يخاطب الناس جميعا على تفاوت أفهامهم واختلاف طباعهم مع شدة حرصه على التبليغ كان يلجأ كثيرا إلى تقرير المعنى عن طريق التشبيه ثم إنه يلح على التأكد من بلوغ الصورة المستخدمة في هذا التقرير إلى ذهن المخاطب كما أرادها من ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال :(....فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ .....][٧٣]

وبتأمل التشبيه النبوي نجد أن المشبه به (شوك السعدان) من عمق البيئة ويشير إلى عدة دلالات منها :

١- الإشارة إلى كثرة الانتشاب وصعوبة الخلاص لمن تعلقت به هذه الأشواك لما هو معروف عن هذه الشجرة لأن لها ثمرة تسمى الضَّقْعانة وهي ذات شوك مستديرة كأنها فكة لا تراها إذا هاج السعدان وانتثر ثمرها إلا مستلقية قد كشرت عن شوكها وانتصَّتْ لقدم من يطؤها[٧٤]

٢- الإشارة إلى سرعة الاختطاف يفهم ذلك من سرعة انتشاب الشوكة بقدم من يطؤها ،ومن اتصال الكلاليب بها في جانب المشبه ثم تعبيره بلفظ (تخطف) الذي يؤكد السرعة قال الزين بن المنير :(تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها مع

---

(73)صحيح البخاري /جـ ١ - ص ٢٧٧ / كتاب صفة الصلاة / باب : فضل السجود / حديث : ٧٧٢ .

74 لسان العرب / جـ : ٨ - ص: ٢٢٤ .

التحـــرز والتـــصون تمثيلا لهم بما عرفوه في الدنيا وألفوه بالمباشرة ،ثم استثنى إشارة إلى أن التشبيه لم يقع في مقدارها ([٧٥]).

وقوله (هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟)استفهام تقرير لاستحضار الصورة المذكـــورة للـــتأكد من رسوخها في أذهان المخاطبين تمهيداً لتقرير المعنى المـــراد بإلحـــاق صورة كلاليب جهنم بها لتقريب الصورة ثم تقرير درجة الـــتفاوت بين ما هو دنيوي وأخروي بقوله:(غَيْرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّـــهُ)وهـــو تكميل بلاغي يعطي الصورة مدى غير محدود يتملاه الوجدان وأفقـــا رحـــبا يذهب فيه العقل كل مذهب وقوله :(تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ) يعطـــي الصورة بعداً آخر لأنه يصوِّر هذا الهول الخارج كالوحش من النار بصورة المميز الذي يختار،وينتقي من أصحاب الذنوب من أمر بأخذه .

من تشبيه الهيئة:

ومـــثل إلحـــاق الغيبي المجهول بالمشاهد المعروف عن طريق التمثيل بمظاهر البيئة تقريبا للمعنى من الأذهان ليثبت ويتقرر مع حوار يجلى أبعاد الـــصورة ويقـــررها حتى تكون حافزا للعمل والاجتهاد قول الرسول ﷺ فيما ورد عَـــنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْـــلَ الْغُـــرَفِ مِـــنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَـــشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَـــا يَـــبْلُغُهَا غَيْـــرُهُمْ قَـــالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)[٧٦]

تـــشبيه الرســـول ﷺ هيئة ترآي أهل الغرف لأهل الجنة بترآي الناس الكـــوكب الدُّري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب في الدنيا تشبيه من صـــميم البيـــئة التـــي يستوي في إدراكها الصغير ،والكبير المتعلم، والأمي وبمراجعتها في البيئة تتضح عدة دلالات منها :

---

[75] فتح الباري / جـــ: ١١/ ص : ٣٥٤.

([76])صـــحيح مـــسلم /جـــ: ٤ ص: ٢١٧٦/ كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها/ باب: ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب حديث (٢٨٣١).

١- الإشـــارة إلـــى الـــرفعة وعلو المكانة بعلو المكان لما هو معروف من ارتفاع الكواكب وبعدها.

٢- التشبيه يقذف في النفوس إحساساً بعظمة الجزاء ،وحفاوة الله بهم مما يشوق النفوس إلى السعي لتحصيل الأسباب الموصلة إلى هذه المنزلة.

٣- وصـــف الكـــوكب بالـــدُري تكميل بلاغي إشارة إلى الضياء والإشراق والـــتلألؤ والدُري هو العظيم وسمي دريا لبياضه كالدر وقيل لإضاءته وقيل لشبهه بالدر في كونه أرفع من سائر النجوم كالدر أرفع الجواهر .

٤- وصفه بالغابر أي الذاهب الماضي الذي تدلى للغروب وبعد عن العيون إيغال بلاغي يؤكد علو المكانة من جهة ويقرر عظمة الجزاء الذي لا يمكن لأحد الناظرين يومئذ بلوغه وهو تشويق وترغيب للمخاطبين في الدنيا للجد والاجتهاد ([77]).

وقال الطيبي: فإن قلت ما فائدة تقييد الكوكب بالدري ثم بالغابر في الأفق قلت للإيذان بأنه من باب التمثيل الذي وجهه منتزع من عدة أمور مـــتوهمة فـــي المشبه شبّه رؤية الرائي في الجنة صاحب الغرفة برؤية الرائـــي الكـــوكب المستـــضيئ الباقـــي في جانب الشرق، أو الغرب في الاستضاءة مع البعد .

فإن قلت ما فائدة ذكر الشرق،والغرب وهلا قيل في السماء أي في كبدها قلت لو قيل في السماء لكان القصد الأول بيان الرفعة ويلزم منه البعد وفي ذكر المشرق أو المغرب القصد الأول البعد ويلزم منه الرفعة ([78]).

وتلـــك من أهم فوائد التشبيه تشخيص المعنى والتشخيص [٧٩] وظيفته التأثير في نفس المتلقي وإثارة انفعاله المناسب عن طريق تشخيص المعانى

---

[77] ينظر شرح السيوطي على مسلم / جـــ : ٦ - ص : ١٧٩

[78] عمدة القاري / جـــ : ١٥ ص : ٢١٧ .

([79])التـــشخيص قال الزمخشري :(ومن المجاز شخص الشيء إذ عينه ، اساس البلاغة ط ١ صـــ ٤٨٢ مادة (شخص)

المجـردة فـي صورة حسية كما مر في حديث ذبح الموت وتشخيصه في صورة كبش وكما سيأتي.

وإنمـا يـصار إلى ذلك من أجل المبالغة في توكيد الصفات، وإثباتها للمعانـى التي يراد عرضها من خلال الصورة ،وقد ربط ابن جنى التشخيص بالتوكـيد، والمبالغة في حديثه عن الصورة في قوله تعالى ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾[80] قال : وهذا تعالٍ بالعرض ، وتفخيم منه ، إذ صير إلى حيز ما يشاهد ويلمس ويعاين ؛ ألا ترى إلى قول بعضهم في الترغيب في الجميل : ولـو رأيـتم المعروف رجلا لرأيتموه حسنا جميلا وإنما يرغب فيه بأن ينبه علـيه ويعظـم قدره ، بأن يصوره في النفوس على أشرف أحواله ، وأنوه صفاته وذلك بأن يتخيل شخصا متجسما لا عرضا متوهما)[81].

تعدد المشبه به لصرف العقول عن التفكير في كنه المشبه

ولأهمية هذا التشبيه، ودوره في تقرير المعانى الغيبية، وترسيخها كان كثيـراً ما يلجأ إليه الرسول ﷺ لتقريب المعانى بصورة أبلغ أثرا في النفوس قـد تـتعد فيها صورة المشبه به للتأكيد والتقرير من جهة ومن جهة أخرى ليـصرف العقـول عن التفكير في المشبه إذا كان مما يستحيل عليها إدراك كـنهه، فيـنقلها فـي عبقرية الأداء من مشبه به إلى مشبه به دون توقف بيـنهما علـى تخيل المشبه ، كما فعل ذلك أيضا بالاستفهام الذي سبق كل صـورة منهما ليجتاز بالمخاطبين نقطة لا يجب أن تعمل فيها عقولهم ،لأنها فوق ما خلقت له كما جاء في حديث الرؤية عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَـلْ تُـضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: هَلْ

([80])سورة الانبياء الآية ٧٥

([81]) الخصائص لابن جنى (أبي الفتح عثمان بن جنى) /جـ ٢ صـ ٤٤٣ : ٤٤٤– ت محمد على النجار – ط المكتبة العلمية – بدون.

تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ ...)[٨٢]

والمتأمل لتشبيه الرسول ﷺ لرؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة برؤية القمر ليس دونه سحاب ورؤية الشمس ليس دونها سحاب يلاحظ خلاله كثيراً من الدلالات منها :

١- تقرير وضوح الرؤية .

٢- تأكيد وقوع الرؤية على وجه ينفي عنها أي شك من مستبعد أو مستغرب .

٣- التشبيه بالقمر يفيد مع وضوح الرؤية الأنس بالمرئي وفي جانب المشبه يفيد أنس المؤمنين بالله ﷻ وهم في أحوج ما يكونون لذلك بعد تخبطهم في عرصات القيامة.

٤- تقييد القمر بالظرف وما أضيف إليه في قوله :(ليلة البدر)تتميم بلاغي فيه إشارة إلى الجمال والكمال والضياء ،لأن القمر يكون في أحسن حالات الضياء وأحسن ليلة البدر.

٥- جملة الحال في قوله :(ليس دونه سحاب) إيغال بلاغي لأنه أتم المعنى عند قوله ليلة البدر ثم زاد عليه ما يؤكده وينفى عن الرؤية كل ما يؤثر عليها.

هكذا نجد أثر البيئة في دلالة التشبيه في\تقرير المعاني البعيدة ونقل الصور الغيبية بكل دقة في الوجدان لتتحول من معان مجردة إلى أمور ملموسة لكل مخاطب ،فيتجاوب مع المتكلم ويتخذ موقفا وجدانيا مماثلا أو مقاربا لما في نفس المتكلم وذلك ما جعل الأمور الغيبية تنطبع في نفوس الصحابة كأنهم يرونها حتى قال قائلهم للرسول - ﷺ-: نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا

([82]) صحيح البخاري /جـ: ٥ ص: ٢٤٠٣/ كتاب الرقاق /باب الصراط جسر جهنم / حديث:٦٢٠٤.

بالـــنَّار وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ)[٨٣] وكذلك أثرها على قلوبهم كما ورد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَزَهِدْنَا فِي الدُّنْيَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ ...][٨٤].

التشبيه باللون.

التشبيه بالليل :

شـــبه الرســـول ﷺ بالليل في الظلمة والسواد المؤذن بالعمى ،والتخبط ،ومـــا ينبعث منهما من خوف ،وقلق (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا ،وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) (٨٥)

والحـــديث يـــشبه الفتن المقبلة في شدتها ،وظلمتها، وعدم تبين أمرها بقطع الليل المظلم، وبالعودة بالتشبيه إلى البيئة يتبين كثير من المعاني :

١ - التشبيه بالليل في بيئة العربي يوحي بالخوف ،والتخبط في الظلام، وعدم الاهتداء .

٢ - الخـــلاص مـــن مخـــاوف الليل بالنسبة للعربى يكون بالسكون في انـــتظار الـــنور ،وكذلك الحال في هذه الفتن يجب على الإنسان ألا يندفع فيها إلى المعاصي .

٣ - التـــشبيه بالقطع خاصة فيه إشارة إلى تتابع هذه الفتن كلما خرج الـــناس من فتنة دخلوا في غيرها مما ينذر بالبقاء على الضلال إلا من رحم الله .

٤ - تقيـــيد المشبه به (الليل)بـــ (المظلم) إشارة إلى انعدام مصدر الهدايـــة، وعموم الضلال يفهم ذلك من حال الليل، وانتشار ظلامه، وكلمة المظلم توحي بانعدام مصدر النور السماوي كالقمر،وغيره، والأرضي كالنار، وغيرها .

---

(83)ســـنن التـــرمذي / جـــ : ٤ ص: ٦٦٦ /كتاب : (صفة القيامة) باب (٥٩) حديث (٢٥١٤).

(84)سنن الترمذي / جـــ: ٤ ص :٦١٢ / كتاب : (صفة الجنة) باب (٢) حـــديث (٢٥٢٦).

85 صحيح مسلم / جـــ ١ - ص: ١٠٩ / كتاب الإيمان / باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن/حديث :١١٨.

قال الطيبي:- رحمه الله – (كقطع الليل المظلم) يريد بذلك التباسها، وفظاعتها وشيوعها واستمرارها ([86])

قال المباركفوري :(والمعنى كقطع من الليل المظلم لفرط سوادها ، وظلمتها ،وعدم تبين الصلاح، والفساد فيها،وحاصل المعنى تعجلوا بالأعمال الصالحة قبل مجيء الفتن المظلمة من القتل، والنهب، والاختلاف بين المسلمين في أمر الدنيا، والدين؛ فإنكم لا تطيقون الأعمال على وجه الكمال فيها، والمراد من التشبيه بيان حال الفتن من حيث أنه بشيع فظيع ولا يعرف سببها ولا طريق الخلاص منها فالمبادرة المسارعة بإدراك الشيء قبل فواته، أو بدفعه... قبل وقوعه([87])

التشبيه بالنهر

النهر، وإن لم يكن موجوداً في الجزيرة العربية إلا إنه لا يكاد يوجد عربي إلا وقد رأى النهر في رحلته إلى العراق ،أو الشام ،أو غيرهما ،أو رأى ما يشبه النهر في تجمعات الماء التي كانت تصنعها السيول في بعض السنين،وهي كافية لتقريب الصورة ،وتقرير المعنى ،وقد جاء التمثيل قياسا لأمر خفي على أمر واضح ليتقرر في الذهن في ما روي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ قَالُوا لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا قَالَ فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا)([88])

المتأمل لأثر البيئة على هذا التشبيه يراه من عدة أوجه :

---

[86] عون المعبود شرح سنن أبي داود / محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب / جـ : ١١ ص : ٢٢٦/ دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الثانية ، ١٤١٥.

[87] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / للمباركفوري / جـ ٦ / ص : ٣٦٤/ الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت .

[88] صحيح مسلم / جـ:١ /ص : ٤٦٢ كتاب : (المساجد ومواضع الصلاة) باب (المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع الدرجات)حديث(٢٨٣).

١ - أنه اختار مشبها به من البيئة تقع عليه أكثر من حاسة ما بين البصر والذوق والسمع واللمس .

٢ - أنه أزال من صورة المشبه به كل الموانع البيئية التي تحول دون تحقيق الغرض كقلة الماء التي تمنع البعض من إتمام النظافة فجعل المشبه به نهراً بالإضافة إلى ما توحي به كلمة (نهر) من إيحاءات تداعب عقل المخاطب كالعذوبة والصفاء وحسن المنظر .

٣ - عالج أيضا في المشبه به ما يلاقيه العربي في بيئته من عناء في إحضار الماء فجعله النهر بالباب في قوله (بباب أحدكم).

٤ - أضاف الباب الملتصق بالنهر للفظ (أحد)المضاف إلى ضمير المخاطبين حتى يعطي المعنى شمولاً يدخل الجميع فيه لأن قرب المسكن من النهر لا يتوفر لكثير من الناس ، وغالبا ما يختص بأهل الترف .

٥ - قوله : (يغتسل فيه كل يوم خمسا) إشارة إلى فراغ جوارحه عن الشواغل التي يمكن أن تمنع تمام النظافة .

٦ - تقييد الاغتسال بالظرف (يوم) يؤكد تتابع التنظيف ويقرر معناه وإضافته لـ(كل) إطراد للمعنى عبر الزمان .

أراد النبي ﷺ بهذا الحديث أن يوضح ويقرر في الأذهان كيفية محو الله الخطايا بالصلوات الخمس فجاء باستفهام التقرير (هل يبقي من درنه شئ؟...) لقياس صورة معنوية هي صورة تطهير الصلوات الخمس لما يقع بينهن من الخطايا على صورة معهودة حسية وهي صورة إنسان يغتسل في نهر خمس مرات ثم يلحق نتيجة الصلوات الخمس وهي مغفرة الذنوب بنتيجة المغتسل خمس مرات إشارة إلى نقاء هذا المصلى من الخطايا كنقاء المغتسل. هذا ما أفاده التقرير بقياس صورة على صورة؛ لتوضيحها في الأذهان.

ثم ينقل الصورة مختلطة بمشاعره ليضعها بازاء الصلوات التي يمحو الله بهن الخطايا ؛ وبذلك تبدو صورة ذلك المصلى من خلال صورة المغتسل

وتبدو الصلوات وهي الطهارة البدنية قالبا وهي الطهارة المعنوية قلبا من خلال صورة نهر صاف عذب قريب وينتج من بين الصورتين صورة مؤمن نقي طاهر القلب ،والقالب كنهره الذي اغتسل فيه صافيا نقيا.

التشبيه بغثاء السيل

ومما يبدو فيه أثر البيئة في دلالة التشبيه بالغثاء ما روى عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ :رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا؛ فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)[89].

والصورة التي رسمها-الرسول ﷺ بالتشبيه عناصرها مستوحاة من البيئة وفيها تشبيهان يتداخلان في تقرير المعنى، وتكوين الصورة النهائية .

التشبيه الأول : في قوله ﷺ .(يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا) تشبيه تمثيلي لحال الأمة الإسلامية، وتربص أعدائها بها وترقبهم للحظة الانقضاض عليها عند ضعفها، وتفرقها، وغفلتها بحال تداعي الأكلة إلى قصعتها ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من كثرة الأعداء، وشدة تكالبهم مع انعدام من يردهم، وتشبيه الرسول -ﷺ- لحال الأمة، وهي في تفرق وضعف يتربص بها أعداؤها لافتراسها بحال تداعي الأكلة إلى قصعتها وهي صورة معروفة بالنسبة للعربي وبربطها بالبيئة توحي بعدة دلالات منها:

أ- كثرة أعداء الأمة الإسلامية المتربصين بها المفهوم من لفظ (تداعى) أي يدعو بعضهم بعضاً وهو من واقع حال العرب عند الرهبة أو الرغبة قال الشاعر :

([89]) سنن أبي داود / ت محمد عبد العزيز الخالدي / جـ :٣ / ص ١١٥ / كتاب الملاحم / حديث رقم ٤٢٩٧/- ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت - بدون . ومسند أحمد / باقي مسند الأنصار / حديث رقم ٢١٣٦٣ / شرحه ووضع فهارسه :محمود محمد شاكر -- المكتب الإسلامي – ط ٢ – سنة ١٣٩٨هـ .

ونحن ببطن مكّة إذ تَدَاعى ... لرهطك من بني عمرو رَعِيلْ[90]

وعند الخير في الطعام وغيره قال طرفة :

نَحْنُ فِي المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلى ... لا تَرَى الآدِبَ فِينا يَنْتَقِرْ [91]

فهم يتجمعون ويتكاثرون عند الرهبة ،وعند الرغبة .

ب- اتفاق هؤلاء الأكلة على هدف محدد (القصعة)وهي إناء معروف يشبع العشرة[92] مما يدل على وفرة الخيرات وفي جانب المشبه يوحي باتفاق أعداء الأمة عليها يؤكد ذلك جمع كلمة (الأمم) الدالة على الاتحاد، ووحدة هدفهم (الأمة المسلمة) وأيضاً ما توحي به كلمة (تداعى) من حرص بعضهم على تنبيه بعض للقصعة .

ج-اقتراب الخطر وتحديقه بهذه الأمة تجد ذلك في تعبيره بلفظ (يوشك) التي توحي باقتراب الخطر الذي يوجب الحذر أيضاً تعبيره بصيغة الجمع للفظة (الأمم) الأمر الذي يزيد الأمر خطورة ويوجب الحذر الشديد.

د- شدة الهجمة على الأمة وضراوتها تجد ذلك في تعبيره بلفظ (الأكلة) بصيغة الجمع من جهة وبمعناها؛ لأن الأكلة جمع مفرده أكول أو آكل، والأولى صيغة مبالغة على وزن (فَعُول) وتوحي بشدة النهم والثانية صفة مشبهة من الأكل توحي بكثرة الأكل وأنه صفة لازمة.

هـ- الإشارة إلى غنى الأمة بالخيرات التي تثير لعاب الأكلة مع عدم توفر الحماية، وحسن الاستغلال لهذه الخيرات تجد ذلك في استخدام لفظة (القصعة) وهي إناء للطعام يقدم للآكلين وإضافة ضمير

---

[90] الأغاني / جـ : ٧ / ص : ١٦٠

[91] أدب الكاتب/ المؤلف : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروري الدينوري / جـ : ١ ص: ١٣٦/ ت : محمد محيى الدين عبدالحميد / الناشر : المكتبة التجارية - مصر /الطبعة الرابعة ، ١٩٦٣.

[92] لسان العرب / جـ : ٩ ص : ١٨٦

الجمع العائد إلى الأكلة إلى القصعة يشير إلى انفرادهم بها وسيطرتهم عليها.

و - أخيراً يفهم من تشبيه الرسول -ﷺ- لحال الأمة وتربص أعدائها مع غفلتها بتداعي الأكلة على قصعتها، والتي يثيرها، ويحركها داع غريزي فطري هو الجوع أن تربص الأمم غير المسلمة قائم في كل زمان، ومكان كلما سنحت فرصة من ضعف، وتفرق، وغفلة للأمة الإسلامية ،وكأن كراهية الأمم للمسلمين، وتربصهم بهم طبع فطروا عليه، وغريزة تدعوهم إلى إيذاء المسلمين .

واستخدام الفعل (يوشك) في صورته المضارعة تصوِّر أعداء الأمة المتربصين في صورة ذئاب تكاد أن تنقض على فريستها بعد تداعيهم واجتماعها واستكمال أسلحتها لتمزيق جسد الأمة، وطبيعة الفعل (يوشك) الدال على المقاربة المؤذنة بدنو الخطر يجعل المخاطب في حذر، وترقب لأسباب الخطر وأبعاده.

التشبيه الثاني: في قول الرسول -ﷺ- (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل) وفيه تشبيهان: الأول :تشبيه المسلمين بالغثاء وهو تشبيه بليغ للمسلمين في كثرتهم، وقلة شأنهم بالغثاء، وهو ما يحمله السيل في طريقه مما خف وزنه، وطرح لانعدام فائدته، ووجه الشبه الكثرة مع انعدام المنفعة، ثم زاد الصورة تأكيداً، وتقريراً بالتشبيه الثاني:وهو قوله:(كغثاء السيل) حيث شبه الغثاء الذي شبه به حال المسلمين بغثاء السيل ووجه الشبه عدم الفائدة مع الكثرة ومجمل هذين التشبيهين مع إضافة الغثاء للسيل بالنظر للبيئة له عدة دلالات منها:

أ- كثرة المسلمين وتفرقهم المفهوم من حال الغثاء الذى يحمله السيل في الطبيعة .

ب- الخفة وانعدام الإرادة المفهومان من حال الغثاء الذى يحركه السيل كيف يشاء ويقذفه في أى اتجاه دون أن يملك تصرفاً في حركته ،لأن مصدرها خارج عن إرادته، وكذا حال المسلمين في

عصر الضعف والهوان في سيرهم خلف الأمم.

ج- الحقارة وانعدام الفائدة ،لأن السيل يجمع ما لا قيمة له من قاذورات الأرض ومما أهمل منها وطُرح .

د- الاختلاف والتنوع وعدم النظام ،لأن جمع السيل للغثاء يصدر عن غير نسق، ويأخذ كل ما يقابله مما خف عليه حمله .

التشبيه بأعضاء الانسان

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- : مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى](٩٣) .

تشبيه الرسول ﷺ في قوله (مثل الجسد إذا اشتكى...) تشبيه تمثيلي حيث شبه حال المؤمنين في شدة الإحساس بينهم وتأثر بعضهم ببعض وتفاعلهم وتجاوبهم مع بعضهم بحال أعضاء الجسد في الجسد إذا اشتكى عضو تألم الجميع بألمه وحمُّوا بحمَّاه. ووجه الشبه قوة الاتصال ،ورقة الشعور ،وسرعة التفاعل.

وتشبيه الرسول -ﷺ- لحال المؤمنين في توادهم ،وتعاطفهم ، وتراحمهم بأعضاء الجسد الواحد في السهر ،والحمى له عدة دلالات منها:

١- أن الجسد كيان واحد رغم تعدد أعضائه واختلاف وظائفه وكذا حال المؤمنين على اختلاف أماكنهم وأوطانهم (فالإيمان قوة واحدة تنتظم قلوب المؤمنين وأظهر المظاهر المرشدة إلى الإيمان بذل المؤمن وده ورحمته وعطفه، تألماً بما يؤلمهم وتداعياً لما يصيبهم، فمن فقد هذا التداعي فلم تعطفه العواطف، ولم تبكه البواكي، فليتحسس قلبه، وليسأل نفسه: أين أنا من دلائل

(93) شرح صحيح مسلم للنووي جـ :١٦ ص : ١١٩/ كتاب البر والصلة / باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعضدهم / حديث رقم ٢٥٨٦ /ترقيم. محمد فؤاد عبد الباقى ط.دار إحياء التراث العربى ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

الإيمـــان؟)[٩٤] واستخدام الرسول -ﷺ- للجسد في التشبيه يشير أول ما يشير إلى معنى الاتحاد المبني على كمال الاتصال.

٢- أن هـــذا الكيان المشبه به مكون من أعضاء ويشير في جانـــب المـــشبه (حـــال المؤمنين) إلى أن المؤمنين مهما تفرقت بهم الأماكن وتغيرت بهم الأزمان فأصلهم منبعه واحد.

٣- أن لكـــل عـــضو وظيفة معينة يؤديها في إطار الحركة العامـــة للجـــسم وكذا المؤمنين يكمل بعضهم بعضاً ويؤدي كل منهم عمله في إطار مصلحة الأمة المسلمة محباً لأخيه ما يحب لنفسه.

٤- أنـــه يـــرتبط بجهـــاز شعوري واحد يستشعر أحوال كل عـــضو مهمـــا صغر، وكذا كل مؤمن مهما ترامت به أطراف الأرض يـــسعد بـــسعادة إخوانه، ويئن بأنينهم ويسهر أرقاً لما يصيبهم، وفيه إشارة إلى ضرورة التجاوب الحي، والفعال.

٥- أن كـــل عضو من أعضاء الجسم لا يستغني عن العضو الآخـــر، وغـــياب أي عضو من الجسد يعني تشوهاً وعجزاً فلا غنى للعـــين عـــن اليد ولا غنىً لليد عن القدم ولا غنىً لعضو عن عضو. وكـــذا فـــي حـــال المؤمنين في حاجة بعضهم إلى بعض.. في اللقاء ابتـــسامة وفـــي الشدة إعانة وفي ظاهر الغيب دعاءً مستجاباً وشوقاً مستطاباً.

والأمـــر أشد وضوحاً في حال أوطان الأمة الإسلامية التي تفرقت فكل وطـــن مهما صغر هو عضو في جسد الأمة لا تستغني عنه بقية الأعضاء وضـــعف وطـــن واحد يضعف الأمة وغيابه يوهن الأمة ويفتُّ في عضدها ويجعلها مطمعاً لأعدائها تحتذها عضواً إثر عضو.

٦- أن فـــي الجسد أجهزة وأعضاءً داخلية وأخرى خارجية تعمـــل في دقة وانتظام لما فيه مصلحة الجميع، وكذا المؤمنين داخل

([94]) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية / صـــ ١٦٠.

الأمـــة الإســـلامية وخارجهـــا مختلطين بالأمم الأخرى، ومع هذا فهم يعملـــون لمـــا فـــيه مـــصلحة الإسلام والمسلمين كما تتجاوب الأمة لندائهم، وتعمل على إغاثتهم.

٧- أن أي وباء يصيب عضواً يمكن أن ينتشر فيصيب بقية الأعـــضاء، ولذلك تجب سرعة مقاومة الوباء لحماية بقية الأعضاء، وكذا الأمر في المجتمعات المسلمة حيث يجب مقاومة كل ما من شأنه أن يضر بالأمة، وسلامتها من بدايته قبل أن ينتشر.

التشبيه بالضلع

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا وَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ (٩٥)

تشبيه الرسول ﷺ للمرأة بالضلع يوحي بعدة دلالات منها :

١- أن العوج في خلق النساء أصل فطرن عليه .

٢- اســـتحالة إقامة هذا العوج لأن محاولة ذلك في الضلع تؤدي إلى كسره وكذلك من يحاول أن يقيم المرأة على المنهج الأمثل إقامة كاملة فإنه لا يـــستطيع وقـــد ورد عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَلَ مِنَ الـــرِّجَالِ كَثِيـــرٌ ،وَلَـــمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ،وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)(٩٦).

٣- المتـــأمل لحال المشبه به يدرك أن هذا العوج جزء مهم في أصل خلقـــته لأداء مهمـــته فلـــولا انحـــناء الـــضلع لتعرض أهم أعضاء الجسم للخطر،وهو القلب لأنه يحيط به ومن العوج الذي في المرأة ضعفها ورقتها التـــي تعرضـــها للأخطـــار وتجعلها أميل إلى حكم العاطفة من العقل ،وهذا

---

95 صحيح البخاري / جـــ : ٥ ص: ١٩٨٧ / كتاب النكاح / باب المداراة مع النساء وقول النبي ﷺ (إنما المرأة كالضلع) حديث: ٤٨٨٩.

96 صحيح البخاري / جـــ ٣ ص ١٢٥٢/ كتاب التفسير / باب قول الله تعالى { وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون - إلى قوله - وكانت من القانتين } / التحريم ١١ ، ١٢/ حديث : ٣٢٣٠.

الضعف وتلك الرقة هما من مكملات وظيفتها فالضعف يركن بها إلى الرجل،والرقة تجعلها أصلح لتربية الصغار،والحنو عليهم والصبر على أحوالهم أكثر من الرجال، وهم عدة الأمة لمستقبلها .

٤- في هذا التشبيه تصبير للرجال ،وتسلية لهم فيما يلاقون من النساء مع التماس العذر لهن؛ لأن هذا العوج إذا كان في أصل الخلقة، فالأمر خارج عن مقدورهن ،لأن مخالفة ما جبل عليه الإنسان من الأمور الصعبة وليس من العدل أن يعاب الإنسان بما أودع الله فيه كمن ولد فاقدا لحاسة،ولكنهن مأمورات بطلب الكمال، وإن لم يدركنه ، فليُحَصِّلن منه ما استطعن ،وعلى الرجال التماس العذر لهن فيما قصَّرن.

٥- يفهم من التشبيه قبول المرأة كما هي بخيرها، وشرها، وعدم الإصرار على حصول كمالها؛لأن ذلك مما تأباه فطرتها وإنما يرضى منها بالحسن،ويصبر على القبيح.

التمثيل بالأحوال الاجتماعية

ورد التشبيه بالأحوال الاجتماعية في صور كثيرة لتؤدي دلالة معينة تتقرر خلال معايشة المخاطبين لها وإحساسهم بدقائقها لتلبُّسهم بها مما ينعكس على اتساع مدلول التشبيه عَنْ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:(الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)(٩٧)

تشبيه الرسول ﷺ في قوله:(وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى...) تشبيه تمثيلي لحال من يدخل في الشبهات بحال الراعي الذي يرعى حول المكان المحظور بحيث أنه لا يأمن من الوقوع فيه وهي صورة من واقع البيئة التي يلابسها كثير من المخاطبين بحيث إذا سمعوا

---

[97] صحيح البخاري / جـ ١ ص : ٢٨/ كتاب الإيمان / باب فضل من استبرأ لعرضه ودينه / حديث : ٥٢ .

هـذا التمثـيل خـالجهم شعور مماثل لشعورهم حين يقتربون من حمى ملك يخـشون بطشه وبذلك تتحقق الرهبة من مواقعة الشبهات التي لا تلبس أن توقـع صـاحبها في الحرام(وقيل: هو تشبيه ملفوف من حيث شبه المكلف بالراعـي والنفس البهيمية بالأنعام، والمشبهات بما حول الحمى، والمحارم بالحمـى، وتـناول المـشبهات بالرتع حول الحمى، ووجه التشبيه حصول العقـاب بعـدم الاحتراز عن ذلك، كما أن الراعي إذا جره رعيه حول الحمى إلـى وقـوعه فـي الحمـى استحق العقاب بسبب ذلك فكذلك من أكثر من الشبهات وتعرض لمقدماتها وقع في الحرام فاستحق العقاب بسبب ذلك)[٩٨] قـال الإمـام العينـي: (يكون تشبيهاً ملفوفاً باعتبار طرفيه وتمثيلاً باعتبار الوجه)[٩٩] .

والواقـع أن الـصورة لا تتأثـر كثيراً بكون التشبيه من قبيل التشبيه الملفـوف أو كونه تمثيلاً حيث إن التشبيه الملفوف ،والتمثيلي يتصل فيهما الجـزءان ،أو الأجـزاء داخل الطرفين ،وينتزع من مجموع كل منهما هيئة مشتركة تكوّن وجه الشبه، والمغزى في كل منهما لا يتم إلا بمجموع أجزاء طرفيه حتى أنك إذا أسقطت جزءاً من هذه الأجزاء، من أي موضع كان، أخل ذلك بالغرض من التشبيه.

وإذا كان من غير الممكن فض التشبيه المركب، وتحويله إلى تشبيهين، أو تـشبيهات مـتعددة كل منهما مستقل عن الآخر لكون ذلك يفسد الغرض المـراد مـن التـشبيه أو يقلل من بلاغته، ويذهب بالصورة المركبة، فإن التـشبيه الملفوف لا يمكن فيه ذلك فلا يمكن مقابلة كل جزء من المشبه بما يقابلـه في المشبه به على حدى دون أن يتأثر المعنى[١٠٠] غير أن الحمل

---

(٩٨) ينظـر: عون البارى لحل أدلة البخارى / للإمام أبى الطيب صدقى حـسن على الحسيني البخارى / جـ١ / صـ١٧٥، ١٧٨ ط. دار الرشيد / حلب/ سوريا .

(٩٩) ينظـر: عمدة القارى شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (ت ٨٥٥)/ جـ١ / ص ٤٦٨/ ضبط :عبد الله محمود محمد عمر/ منشورات محمد علي بيضوت/ دار الكتب العلمية / بيروت – الطبعة الأولى /١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

(١٠٠) ينظر: التشبيه المقيد بين الإفراد والتركيب / د.عبد المنعم سيد عبد السلام الأشقر / صـ١٠٠ / طبعة أولى / ١٤١٦هـ ١٩٩٦م / ط.مطبعة الأمانة.

علـــى التمثيل أولى لأن الأجزاء في صورة التشبيه التمثيلي شديدة التماسك، والتداخل المؤدي لمضمون متكامل لمعنى.

وبالرجوع بالتشبيه إلى البيئة العربية نجد أن العادة جرت لدى ملوكهم أن يكـــون لهـــم حمى (مساحة من الأرض يخصصونها لأنفسهم ترعى فيها إبلهم، ويمنعون غيرها ومن يتعد عليها يقع في العقاب)

وتـــشبيه الرســـولﷺ لمن يقع في الشبهات بالراعى الذي يرعى حول الحمى، ويوشك أن يقع فيه يعطي عدة دلالات منها:

١- التأكـــيد علـــى مـــسئولية الراعي على ما استرعي لأنه المالك لـــزمامها المسئول عن تصريف أمرها وهي منقادة إليه وهي في المـــشبه جـــوارحه التي يستطيع أن يصرفها في مرضاة الله أو يرتع بها فيما حرم .

٢- التـــرهيب من الاقتراب من محارم الله والتحذير من عقابه يفهم ذلك من حال الراعي الذي يوشك أن يتعرض لعقوبة الملك الذي يوشك أن يستبيح حماه .

٣- فـــي التـــشبيه إشارة الى طرق الحلال والترغيب فيها :فهم هذا المعنـــى مـــن الإطلاق والتقييد في المرعى فالملك حماه محدود بالنـــسبة لبقية الأرض ويستطيع الراعي أن يجد له مكانا غيره- وإن بعـــد- فـــإن فيه السلامة وكذلك الحلال فمهما صعب أو بعد فهو الخير وفيه السلامة .

٤- الإشـــارة إلى خطر الشبهات، وأنها طريق إلى المحرمات ؛لأنها تُعلِّـــم الجرأة على مخالفة الله، وتُمنِّي النفس بالحرام بقربها منه يفهـــم ذلـــك من حال الرعي حول الحمى، وإبله التي لا تلبث أن يغـــريها طـــيب مرعـــى الملك بالرتع فيه، وكذلك نفس الإنسان البهيمية التي تميل إلى الشهوات.

ومـــن التشبيه بالأحوال الاجتماعية ما ورد عَنْ أبي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُـــولُ اللَّـــهِ ﷺ مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَا النَّجَاءَ فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ، فَادْلَجُوا

عَلى مَهْلِهِمْ فنجَوْا ،وكَذَّبَتْهُ طائِفَةٌ ،فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فاجْتَاحَهُمْ)([101]).

هذه الصورة التمثيلية من واقع البيئة العربية في الجاهلية التي كانت تموج بالصراعات والفتن والغارات حيث يلتهم القوي الضعيف والبقاء فيها للأقوى وبالنظر في مظاهر البيئة في التشبيه تتضح لنا عدة دلالات :

١- اختيار الرجل للتشبيه به من واقع الحال لأن من عادتهم أن يرسلوا الرقباء والعيون من الرجال ولأنهم أقوى على الاحتمال وأسرع في التحذير وتنكيره لكلمة(رجل)للتعميم لتشمل كل من كانت هذه حاله وكذلك اختياره لكلمة(قوم)وهم الجماعة من الرجال لأنهم المعنيون بالدفاع عن القبيلة .

٢- قوله رأيت الجيش بعيني) يؤكد صدق الخبر ويرفع درجة الإحساس بالخطر وهو من عادتهم إذا أرادوا تأكيد خبر أن يقول المخبر رأيت بعيني ولم يخبرني أحد.

قوله (إني أنا النذير العريان)(استعارة تمثيلية) من واقع البيئة لمن تجرد في أمر وصدق فيه وأصله أن الرجل إذا رأى الغارة قد فجأتهم وأراد إنذار قومه تجرّد من ثيابه وأشار بها ليعلم أنه قد فجأهم أمر ثم صار مثلا لكل أمر تُخاف مفاجأته ولكل أمر لا شبهة فيه ، قال الطيبي: شبه ﷺ نفسه بالرجل وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح وشبه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدقه ([102])

قال الإمام العيني (لضرب المثل شأن في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق فإن الأمثال تري المخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، ولا يضرب مثل إلا قول فيه غرابة، فإن قلت ما المورد وما المضرب؟ قلت :المورد الصورة التي ورد

---

[101] صحيح البخاري /جـ : ٦ ص: ٢٦٥٤ / كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة / باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ حديث ٦٨٥٤.

[102] فتح الباري لابن حجر جـ : ١١ ص : ٣١٧

فـيها ذلك القول، والمضرب هي الصورة التي شبهت بها، ثم اعلم أن المثل لـه مفهـوم لغـوي، وهو النظير ،ومفهوم عرفي،وهو القول السائر،ومعنى مجازي، وهو الحال الغريبة(103)

التشبيه بالخط

الخَطُّ الطريقةُ المُسْتَطِيلةُ في الشيء والجمع خُطُوطٌ ... ويقال الكَلأُ خُطوطٌ في الأرض أي طَرائقُ لم يَعُمَّ الغَيْثُ البلادَ كُلَّها ...والخَطُّ الطريق يقال الزَمْ ذلك الخَطَّ ولا تَظْلِمْ عنه شيئاً...

.والتَّخْطِيطُ التَّسْطِيرُ تقول خُطَّتْ عليه ذنوبُه أي سُطِّرت (104) وإذا كان مـن معانـي الخط الكتابة فمن الجدير بالذكر أن المقصود بالخط في حديث الرسـول ﷺ غيـر الكتابة لأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب لحكمة أرادها الله، قـال تعالـى: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)(105)

تصوير المعنى بالرسم .

والمقـصود بـالخط في الحديث النبوي هو الرسم التوضيحي المقرب للمعنـى في أثناء الحديث عن طريق الخط على التراب أو الرمل بالإصبع أو العـود وهـذا الـشكل من الخطوط معروف في البيئة العربية وقد يلجأ إليه الإنسان عند الهم وطروق طارق قال : ذو الرمة :

عَشِيَّةَ مالي حيلةٌ غيرَ أنَّني بِلَقطِ الحَصى وَالخَطِّ في الأرضِ مولَعُ

أَخُطُّ وَأمحو الخَطَّ ثُمَّ أعيدُهُ بِكَفَّيَ وَالغربانُ حَولِيَ وُقَّعُ (١٠٦)

(١٠٧)

---

103 ينظر عمدة القاري / جـ: ٢ ص : ٢١.

104لسان العرب / جزء ٧ - صفحة ٢٨٧ بتصرف .

105 سورة: العنكبوت - الأية: ٤٨.

(106)الحـيوان للجـاحظ (أبي عمر بن بحر الجاحظ) ت عبد السلام محمد هارون جـ ١ ص ٦٣ ط ٣ ط دار احياء التراث العربي سنة ١٣٨٨هـ١٩٦٩م.

(107)ديوان ذي الرمة جـ ١ صـ ٣٤٩ ت د. واضح الصمد ط دار الجيل بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١٧ هـ سنة ١٩٩٧ م

وقد استخدم الرسول ﷺ الخط كرسم توضيحي للمعنى الذي يتحدث عنه من ذلك ما روى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ وَقَالَ هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا *([108]).

وتشبيه الرسول ﷺ لحال الإنسان مع أجله، وأمله بالخط المربع، والخط الخارج في وسطه والخطوط الصغار حوله يقرر معنى طول أمل الإنسان وتقاصر الأجل عن استيعابه والإنسان بينهما عرضة لنهش الأعراض إن نجا من عرض نهشه عرض آخر وإن نجا منها أدركه أجله لا محالة .واستخدام الرسول ﷺ لعناصر البيئة يحقق مجموعة من الأغراض :

١- تقرير المعنى في ذهن المتلقي لاعتماده على حاستي البصر مع السمع .

٢- الوصول بالمعنى إلى مختلف الأفهام لاعتمادها على المشاهدة .

٣- تثبيت المعنى في ذهن المتلقي بالإضافة إلى التشويق الذي تحققه الرغبة في رؤية المرسوم والغرض منه.

٤- تشبيه الرسول ﷺ لحال الإنسان مع أمله وأجله بهذه الخطوط يشير إلى عدة معاني منها : أن الإنسان في خطر دائم لا ينفك عنه ،ثم إنه محاط بأجله مما يؤكد استحالة الانفلات عن هذه الدائرة الأمر الذي يستلزم الجد وعدم الركون للدنيا، كما يؤكد قصر العمر مما يدعو إلى اليقظة وحسن استغلاله في الباقيات الصالحات.

٥- استعارة النهش، وهو لدغ ذات السم لحدوث الآفات التي تصيب الإنسان مبالغة في الإصابة، وشدة الألم ،وسرعة القضاء على من أدركه هذا العرض لأن الملدوغ يتسارع إليه الفناء،والحديث بتركيبه يقرر المفارقة بين طول الأمل وقصر الأجل،وشدة الغفلة، وعظم الخطر وهو في جملته دعوة إلى الزهد، وعدم الركون إلى

---

[108] البخاري /جـ ٥ / ص: ٢٣٥٤/ كتاب الرقاق / باب في الأمل وطوله/ ٦٠٥٤ .

الدنيا ([109]).

ومن التشبيه بالرسم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا خَطًّا ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ تَلَا (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) *([110]).

وتشبيه الرسول ﷺ لطريق الله المستقيم وما حوله من طرق الشيطان يوحي بعدة دلالات :

١- الإشارة إلى وضوح الطريق لأن العين تستطيع أن ترى منه مد البصر بعكس المتعرج فإن البصر ينتهي منه عند أول تعريج ويصير ما بعده مجهولا مما يجعله عرضة لكل متربص مع احتمال التيه والضلال إذا كثرت تلك التعريجات.

٢- كثرة الطرق حول الخط المستقيم تشير إلى كثرة سبل الضلال وتشعبها .

٣- الإشارة إلى إمكانية الضلال، وكثرة المغريات يفهم ذلك من كثرة الطرق مع وجود الشيطان على كل طريق يزينها ليخدع الناس .

---

[109] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / المباركفوري / جـ ٧ / ص : ٢٧ / دار الكتب العلمية – بيروت .

[110] سنن الدرامي / المقدمة حديث : ٢٠٤ / ترقيم العالمية .

الخاتمة

الحمد لله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ، حمدا كثير طيبا مباركا فيه ،ونصلي ،ونسلم على سيدنا محمد ،وآله، وصحبه ، ومن تبعهم إلى يوم الدين...وبعد

فهـذه تطوافة في البيان النبوي حاولت خلالها إلقاء الضوء على أثر البيئة فى اتساع مدلول التشبيه ،وقد تبين خلال الدراسة ما يلي :

١- أن التـشبيه النـبوي تشبيه في أكثره من البيئة مما يجعله أكثر وضـوحا، وأدق تعبيـراً ،وأسرع وصولاً إلى عقل المخاطب مع بلوغه إلى جميع الأفهام مع تفاوتها.

٢- ما ورد من التشبيهات يوهم خلاف ذلك كالتشبيه بالشيطان فيما ورد أنْ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُـلٌ ثَائِـرَ الـرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنِ اخْرُجْ كَأَنَّهُ يَعْنِي إِصْلَاحَ شَعَرِ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ فَفَعَلَ الرَّجُلُ ثُمَّ رَجَعَ فَقَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ ثَائِرَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ)([111])

هـذا التـشبيه مقـصود به التنفير، والتقبيح وهو جار على سنن العرب في التشبيه بما ترسّخ في النفوس من صور لأشياء ليست حقائقها مرئية في حياة الناس كقول امرئ القيس :

أيَقْتُلنـي وَالمَـشرَفِيُّ مُـضاجِعي وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأنيابِ أغوالِ ([112]).

فتـشبيه أسـنة الـرماح ،والسهام بأنياب الغول من التشبيه الذي يسميه البلاغيون(التشبيه الوهمي)؛لأن المشبه به منتزع من الوهم ،وهو

---

[111] موطأ الإمام مالك/ جـ : ٢ ص : ٩٤٩/ كتاب الشعر / باب إصلاح الشعر / حديث ١٧٠٢/ ت: محمد فؤاد عبد الباقي/ دار إحياء التراث العربي/ مصر .

[112] شـرح ديـوان امرئ القيس ، ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية والإسلام صـ ١٦٣ تأليف حسن السندوبي ط ٧ المكتبة الثقافية – بيروت – لبنان

ليس مدركا بالحواس الخمس ،ولكنه لو أدرك لكان مدركاً بها ، وقد خاطبهم القرآن الكريم بلغتهم في قوله تعالى:(طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ)(113) قال الزمخشري في تشبيه طلع شجرة الجحيم برؤوس الشياطين ،وعادة العرب في ذلك :(وشُبِّه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهية وقبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير، فيقولون في القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان ، وإذا صوَّره المصورون : جاؤا بصورته على أقبح ما يقدر ،وأهوله كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير محض لا شر فيه، فشبهوا به الصورة الحسنة ،قال الله تعالى:(... مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)(114)، وهذا تشبيه تخييلي... وقيل : إن شجراً يقال له الأستن خشنا منتنا مراً منكرَ الصورة يسمى ثمره رؤوس الشياطين ،وما سمَّت العرب هذا الثمر رؤوس الشياطين إلا قصداً إلى أحد التشبيهين، ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلاً ثالثاً يشبه به "(115) قال بن عبد البر:وأما قوله(كأنه شيطان) فهو محمول على المعروف من كلام العرب لأنها كانت تشبه ما استقبحت بالشيطان،وإن كان لا يرى لما أوقع الله في نفوسهم من كراهيته)(116).

٣- اقترن التشبيه النبوي في كثير من الأحيان بوسائل زادته تقريرا ووضوحا كاقتران التشبيه بالاستفهام كما مر في قوله ﷺ (هل رأيتم شوك السعدان ؟... فإنها مثل شوك السعدان) وكقوله: (هل يبقى من درنه شيء ؟) أو تأكيد المعنى بأكثر من صورة كقوله ﷺ(هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ ...؟)(هَلْ تُضَارُّونَ فِي

---

113 سورة الصافات: الآية : ٦٥ .

114 سورة يوسف : الآية ٣١ .

115 الكشاف / جـ :٣ / ص :٣٤٢/ طبعة دار الفكر – بيروت .

116 التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد(المؤلف : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري) جـ : ٥ ص : ٥١/ ت: مصطفى بن أحمد العلوي ,محمد عبد الكبير البكري/ الناشر : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب ، ١٣٨٧.

الشَّمْس...)[١١٧] لتحقيق عدة أغراض، كالتقرير، أو التأكيد،أوصرف المخاطب عن التفكير في كنه المشبه إذا كان ذلك فوق إدراكه كما مر.

٤- تبين من خلال الدراسة أن عناصر الصورة في التشبيه النبوي شملت كثيراً من مظاهر البيئة كالسماء بنجومها ،وكواكبها ،والأرض بتضاريسها المختلفة مراعيا خصائص كل عنصر وقع التشبيه به حتى يصدر المعنى في أتم صورة وأدق تعبير كما شمل كثيراً من الأحوال الاجتماعية والعادات القبلية ذات الدلالة المتعارف عليها بين القوم مما يجعل الممثل بها في قمة الوضوح .

٥- أشارت الدراسة إلى كثير من خصوصيات التشبيه النبوي المتصل بالبيئة، ومنها عمق المعنى ،ودقة التصوير ،والاستمرارية عبر الزمان،والمكان لاعتماده على عناصر عامة في التصوير ،أو عناصر خاصة ،ولكنها تحولت إلى رموز لمعانيها من غير نظر إلى مدلولاتها المباشرة كالسيف الذي صار رمزا لمجموعة المعاني الذي يجري في سياقها مثل الحسم ،والقوة ،والصرامة والاستقامة ،كقوله ﷺ(...نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ)[١١٨] أو أن السياق حمل في تركيبه ما يوضح دلالة الصورة والمقصود منها كما مر في قوله ﷺ (وَفِي جَهَنَّمَ كَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ)فشوك السعدان لا يعرفه كثير من الناس ولكن معرفة الناس بالشوك تعطي قدرا من المعنى يستكمله معرفة الناس بالكلاليب والكَلُّوبُ والكُلاَّبُ حديدةٌ معطوفة كالخُطَّافِ أو خَشَبَةٌ في رأسها عُقَّافَةٌ منها أو من

---

[117] صحيح البخاري /جـ: ٥ ص: ٢٤٠٣/ كتاب الرقاق /باب الصراط جسر جهنم / حديث:٦٢٠٤.

[118] سنن الترمذي /جـ: ٥ ص : ٦٨١ / كتاب المناقب / باب ٥٠ مناقب لخالد بن الوليد رضي الله عنه/حديث ٣٨٤٦.

حديدٍ([119]) تعطي تصورا للمعنى المراد.

٦- كثيرا ما يرد التشبيه النبوي في أسلوب يتسم بالحيوية، والحركة عن طريق الحوار المنبئ بالتواصل المؤذن ببلوغ المعنى .

٧- التأكيد على أن المعاني المفهومة من الصورة التشبيهية تتسع باستمدادها من البيئة لاسيما إذا صدرت من نفس توفّر حسها بالأشياء،وأدركت خصائصها،وأحصت دقائقها ،وفعلت فعلها فيها، ثم فاض هذا الحس حتى استنطق تلك البيئة بأدق،وأرق المعاني التي تحكي عبقرية الزمان ،والمكان، ومما أطبق عليه البلاغيون أن ذروة السنام في ذلك للبيان النبوي لما اختص الله ﷻ به الرسول ﷺ – كما سبق ذكره–.

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

---

[119] الفائق في غريب الحديث للزمخشري/ جـ :١/ ص:١٧٢/ ت : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم/دار المعرفة – لبنان/الطبعة الثانية.

فهرس المرجع

١. أساس البلاغة /الزمخشري/طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب/الطبعة الثالثة/ ١٩٨٥م

٢. الأغانـــي / لأبي الفرج الأصفهاني/ ت : سمير جابر/الناشر : دار الفكر - بيروت/الطبعة الثانية.

٣. الإيـــضاح للخطـــيب القزوينـــي / ت:محمد عبد المنعم خفاجي/ الطبعة الثالثة / دار الجيل – بيروت.

٤. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث/ المؤلف : الحارث بن أبي أسامة / الحـــافظ نـــور الـــدين الهيثمي ت : د. حسين أحمد صالح الباكري/ الناشر : مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة /الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـــ – ١٩٩٢م.

٥. التجربة الابداعية في ضوء النقد الحديث (دراسات وقضايا) د – صابر عـــبد الـــدايم/ الطبعة الاولى سنة ١٤٠٩ هـــ ١٩٩٠م مكتبة الخانجي القاهرة.

٦. تحفـــة الأحـــوذي بـــشرح جامع الترمذي / محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا / دار الكتب العلمية – بيروت .

٧. التـــشبيه المقـــيد بين الإفراد والتركيب / د.عبد المنعم سيد عبد السلام الأشقر / طبعة أولى / ١٤١٦هـــ ١٩٩٦م / ط.مطبعة الأمانة.

٨. التـــصوير البيانـــي(دراسة تحليلية لمسائل البيان) د: محمد محمد أبو موسى/مكتبة وهبة /الطبعة الرابعة ١٤١٨ هـــ ١٩٩٧م.

٩. التمهـــيد لمـــا فـــي الموطا من المعاني والأسانيد(المؤلف : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري) ت: مصطفى بن أحمد العلوي ,محمـــد عـــبد الكبير البكري/ الناشر : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية/المغرب،١٣٨٧هـــ.

١٠. الحديث النبوى من الوجهة البلاغية/ د:كمال عز الدين/ الناشر :دار اقرأ- بيروت -الطبعة الأولى ١٤٠٤هـــ ١٩٨٤م.

١١. الحيوان للجاحظ (أبي عمر بن بحر الجاحظ) ت عبد السلام محمد هارون /ط ٣ ط دار احياء التراث العربي سنة ١٣٨٨ هـ سنة ١٩٦٩ م.
١٢. خزانة الأدب وغاية الأرب/ لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي/ت:عصام شعيتو/الناشر:دار ومكتبة الهلال – بيروت / الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م.
١٣. الخصائص لابن جنى (أبي الفتح عثمان بن جنى) – ت محمد على النجار – ط المكتبة العلمية – بدون.
١٤. ديوان ذي الرمة / ت د. واضح الصمد ط دار الجيل بيروت ط الأولى سنة ١٤١٧ هـ سنة ١٩٩٧ م
١٥. ديوان زهير بن أبي سلمى / طبعة دار صادر – بيروت .
١٦. ديوان عنترة بن شداد/ ت:بدر الدين حاضري،محمد حامي/دار الشرق العربي – بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٢هـ١٩٩٢م.
١٧. سنن أبى داود / ت محمد عبد العزيز الخالدي / ط ١ – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون.
١٨. سنن ابن ماجة / لمحمد بن يزيد أبي عبدالله القزويني / المقدمة /باب القدر/ حديث :٨٨ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر دار الفكر – بيروت.
١٩. سنن الترمذي / أحمد محمد شاكر وآخرون/ طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٢٠. سنن الدرامي / ترقيم العالمية .
٢١. شرح ديوان امرئ القيس ، ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية والإسلام /تأليف حسن السندوبي ط ٧ المكتبة الثقافية – بيروت.
٢٢. شرح النووي على صحيح مسلم / ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي /الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ / دار إحياء التراث العربي . بيروت .
٢٣. صحيح مسلم / ت : محمد فؤاد عبد الباقي طبعة / دار إحياء التراث العربي . بيروت .

٢٤. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، وعلوم حقائق الإعجاز / يحيي بن حمزة العلوي / دار الكتب العلمية – بيروت- ١٤٠٢هـ-١٩٨٣ م.
٢٥. العصر الجاهلي / د: شوقي ضيف / الطبعة الرابعة والعشرون- دار المعارف .
٢٦. عمدة القارى شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (ت ٨٥٥) ضبط :عبد الله محمود محمد عمر/ منشورات محمد علي بيضوت/ دار الكتب العلمية / بيروت – الطبعة الأولى /١٤٢١هـ ٢٠٠١م .
٢٧. عون البارى لحل أدلة البخارى / للإمام أبى الطيب صدقى حسن على الحسيني البخارى / ط. دار الرشيد / حلب/ سوريا .
٢٨. عون المعبود شرح سنن أبي داود / محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب / دار الكتب العلمية – بيروت/الطبعة الثانية ، ١٤١٥.
٢٩. عيار الشعر لابن طباطبا العلوي /ت: طه الحاجري ومحمد زغلول/ طبعة المكتبة التجارية – القاهرة – ١٩٦٥م.
٣٠. الفائق في غريب الحديث للزمخشري/ ت : علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم/ الناشر : دار المعرفة – لبنان/الطبعة الثانية.
٣١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلانى / طبعة دار المعرفة – بيروت / سنة : ١٣٧٩هـ.
٣٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير المناوي /الناشر : المكتبة التجارية الكبرى – مصر/ الطبعة الأولى ، ١٣٥٦هـ .
٣٣. كتاب العين / للخليل بن أحمد / ت : د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي/ لناشر: دار الهلال.
٣٤. الكشاف للزمخشري / طبعة دار الفكر – بيروت.
٣٥. لسان العرب /محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري/ دار صادر – بيروت/ الطبعة الأولى .
٣٦. مدارج السالكين لابن القيم / ت : محمد حامد الفقي / الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت .

٣٧. المزهر في علوم اللغة للسيوطي/ ت: فؤاد علي منصور/الطبعة الأولى ١٩٩٨ م / دار الكتب العلمية– بيروت.
٣٨. المستدرك على الصحيحين /المؤلف : محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري ت : مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية – بيروت/الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠.
٣٩. مسند أحمد / شرحه ووضع فهارسه :محمود محمد شاكر – المكتب الإسلامي – ط ٢ – سنة ١٣٩٨هـ .
٤٠. مسند ابن الجعد/ المؤلف : علي بن الجعد بن عبيد أبو الحسن الجوهري البغدادي / ت:عامر أحمد حيدر/الناشر:مؤسسة نادر/ بيروت/الطبعة الأولى/١٤١٠هـ١٩٩٠م.
٤١. مسند الشهاب / المؤلف : محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي / ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي/ الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت / الطبعة الثانية ، ١٤٠٧ – ١٩٨٦.
٤٢. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم/الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.
٤٣. مفهوم الشعر (دراسة في التراث النقدي)د:جابر عصفور / طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب / ٢٠٠٥م.
٤٤. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج /للنووي / دار إحياء التراث العربي – بيروت /الطبعة الطبعة الثانية ، ١٣٩٢.
٤٥. موطأ الإمام مالك/ ت: محمد فؤاد عبد الباقي/الناشر : دار إحياء التراث العربي – مصر .
٤٦. النهاية في غريب الحديث والأثر/أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري/ تحقيق : طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي/ الناشر : المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٤٧. وحي القلم/مصطفى صادق الرافعي/ت:درويش الجويدي/المكتبة العصرية/ ٢٠٠٢ م.